# فنون البلاغة
# بين
# القرآن وكلام العرب

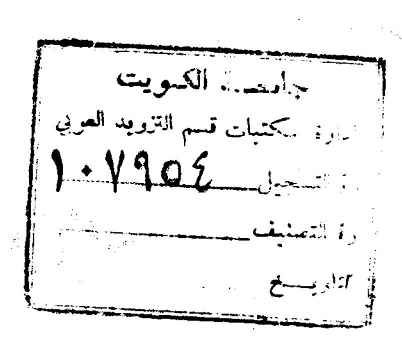
تأليف الدكتور
فتحي عبد القادر فريد

منشورات
دار اللواء للنشر والتوزيع
الرياض - ص.ب: ٢٨٧٦

# فنون البلاغة
# بين
# القرآن وكلام العرب

تأليف الدكتور
فتحي عبد القادر فريد

منشورات
دار اللواء للنشر والتوزيع
الرياض - ص.ب: ٢٨٧٦




الطبعة الأولى

١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م

## بسم الله الرحمن الرحيم

## « تمهيـــــد »

الحمد لله جعل الإسلام خاتماً للأديان ، وأراد للقرآن الكريم أن يكون معجزة هذا الدين الخالد ـ فأنزله على رسوله الأمي محمد عليه السلام بلسان عربي مبين فشهد له العرب بالبلاغة ، ووقفوا أمام بيانه مبهورين ، وكانوا أهل بلاغة وأصحاب فصاحة ـ فكان عجزهم عن الإتيان بمثله إعجازاً لمن يجيء بعدهم من العرب وغيرهم إلى أن تقوم الساعة .

وبعد : فمما لا شك فيه أن بناء القرآن اللغوي المتين ونظمه البلاغي الوافي يأتي في مقدمة أسباب سمو هذا الكتاب عن عبث العابثين بالحذف والزيادة والتبديل والتغيير بحيث عد الكتاب الوحيد الذي بقي على صورته كما نزل به جبريل الأمين عليه السلام لم يُغيَّر فيه حرف من كلمة ولا كلمة من جملة ولا جملة من عبارة ، وبقاء القرآن على هذا الوجه المتميز من الصون والحفظ كان أيضاً وبدون شك حسنة عظيمة من حسنات اللغة العربية ومنقبة كبيرة من مناقبها ، إذ ضمن لها الحفظ وحقق لها الصون ، وهيأ لها دوام الإستعمال والإشتهار والانتشار وتلك ميزة هائلة تزهو بها اللغة العربية وتنافس بها غيرها من لغات العالم التي دبَّ الوهن في أوصالها ، وسرى الضعف في بنائها ولحقها الفناء والإهمال ، وأضحت تُعدُّ للذكرى ، وتذكر للتاريخ ـ فالقرآن الخالد حقق للغة العروبة الخلود ، وهو يعد خير مُعجَم لحفظ مفرداتها وصون تراكيبها ، وصدق الله حيث يقول : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون »[1] .

---

(١) سورة الحجر : ٩ .

لهذا لم يكن مستغرباً أن تتعدد آراء الباحثين حول الجانب الذي يتمثل فيه إعجاز هذا الكتاب العظيم ، فقد نقلت إلينا الكتب والمؤلفات وما تزال تنقل وجوهاً كثيرة للإعجاز ، تختلف من عصر لعصر ، ومن باحث لآخر - لكن وجهاً من هذه الوجوه لم يحدث عليه خلاف - بل كاد أن يحظى بإجماع الباحثين لعمومه وتمثله في جميع سور القرآن وآياته - وذلك هو : نظمه المعجز وبلاغته الفائقة التي أعجزت العرب الأول الذين عاصروا نزول القرآن وكانوا أهل لسن وبيان : يتبارون في قرض الأشعار ويتنافسون في حبك الخطب ورصف العبارات وقد دعاهم القرآن متحدياً لتأكيد نبوة رسوله أن يأتوا بمثله أو بعشر سور مثله أو بسورة واحدة من مثل سوره فعجزوا عن ذلك وأثبتوا عجزهم ومن بعدهم من العرب والعجم إلى أن تقوم الساعة ، وصدق الله : « وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين . فإن لم تفعلوا، ولن تفعلوا، فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين»[1] .

---

(١) سورة البقرة : ٢٣ ، ٢٤ .

مع إجماع الباحثين على أن القرآن هو المعجزة الكبرى لرسول الله عليه السلام - فإن تحديد جانب معين يتمثل فيه المجاز الكتاب الكريم لم تجتمع عليه كلمتهم - فمنهم من رأى أن تحديد جهة محددة لإعجاز القرآن أمر بالغ الصعوبة - كالخطابي والرماني والباقلاني والقاضي عياض والزركشي والألوسي والقرطبي - فقد ذكر كل منهم لإعجاز القرآن وجوهاً كثيرة عدا النظم الذي لم يختلفوا على أنه وجه أساسي للإعجاز - ومنهم من ذكر أن حقيقة الإعجاز القرآني أمر يصعب تحديده وأكبر من أن يحصر في وجه بعينه ، ومن هؤلاء : الخطابي الذي بدأ حديثه في « بيان إعجاز القرآن » بتقرير أن الناس لم ينتهوا فيه إلى رأي على كثرة كلامهم وطول نقاشهم . . . كما قرر أن إعجاز القرآن في نظمه . . . ثم أضاف اليه وجهاً آخر وهو : ما يحدثه القرآن في النفوس من تأثير - بيان المجاز القرآن للخطابي ضمن ثلاث رسائل في المجاز القرآن ص : ٧٠ - والسكاكي والزركشي والسيوطي والدكتور محمد عبد الله دراز - البرهان للزركشي ٢/ ١٠٠ ، ومعترك الأقران للسيوطي ص : ٣ ، ١١ والنبأ العظيم د . محمد عبدالله دراز ص : ٢٠٩ وما بعدها .

ويوضح هذا النص للسيوطي ما يراه بعض العلماء من أن إعجاز القرآن لا حد له ، ولا يمكن وصفه ، ويستعان على معرفة أسراره بعلوم البلاغة ، يقول السيوطي : « وقد أفرد علماؤنا رضي الله عنهم بتصنيف إعجاز القرآن وخاضوا في وجوه إعجازه كثيراً منهم : الخطابي والرماني ، والزملكاني ،

ولكن البلاغة التي لم يختلف الباحثون في الإعجاز القرآني قديماً وحديثاً على كونها وجهاً أساسياً من وجوه إعجازه ـ ماذا يراد بها ؟

أهي البلاغة التي تناولها المؤلفون على تعدد مناهجهم وتفاوت طرائقهم وتباين أساليبهم منذ عرف التأليف في البلاغة ابتداء من صاحبي مجاز القرآن « ابو عبيدة معمر بن المثنى » ومروراً بأبي هلال العسكري والرماني والخطابي والباقلاني وابن سنان الخفاجي وعبد القاهر والزمخشري والرازي وانتهاء بأبي يعقوب السكاكي والخطيب القزويني وسعد الدين التفتازاني ومن دار في فلكهم وحذا حذوهم من الباحثين والدارسين في العصر الحديث ؟

وإذا كانت تلك هي البلاغة التي يعدها جمهور الباحثين في الوجه الأساسي لإعجاز القرآن ، فكيف يدرك أسرارها ، ويقف على مواطن الجمال والجلال فيها غير العرب من الأوربيين والأمريكيين واليابانيين ومن على شاكلتهم ممن لا يعرفون العربية ، ونسمع ونرى أنهم يوماً بعد يوم يعتنقون الإسلام زرافات

---

=والإمام الرازي ، وابن سراقة ، والقاضي أبو بكر الباقلاني ، وأنهى بعضهم وجوه إعجازه إلى ثمانين ـ والصواب أنه لا نهاية لوجوه إعجازه كما قال السكاكي في المفتاح : « اعلم أن إعجاز القرآن يدرك ولا يمكن وصفه ، كاستقامة الوزن تُدرك ولا يمكن وصفها ، وكالملاحة ، وكما يُدرَك طيبُ النغم العارض لهذا الصوت ، ولا يدرك تحصيله لغير ذوي الفطر السليمة إلا باتقان علمي المعاني والبيان والتمرين فيهما » معترك الأقران في إعجاز القرآن للسيوطي ج ١ ص : ٣ ، ٤ .

والسيوطي إذ يوافق السكاكي على ما انتهى اليه من صعوبة تحديد موضع الإعجاز من القرآن ينقل لأبي حيان التوحيدي قولاً بهذا المعنى ، فيقول : « قال أبو حيان التوحيدي : سئل بندار الفارسي عن موضع الإعجاز من القرآن فقال : هذه مسألة فيها حَيْف على المعنى ، وذلك أنه شبيه بقولكم : ما موضع الإنسان من الإنسان ؟ فليس للإنسان موضع من الإنسان ، بل متى أشرت إلى جملته فقد حققته ودللت على ذاته ـ كذلك القرآن لشرفه لا يُشار إلى شيء منه إلا كان ذلك المعنى آية في نفسه ومعجزةً لمحاوله ، وأهدى لقائله ، وليس في طاقة البشر الإحاطة بأغراض الله في كتابه ـ فلذلك حارت العقول وتاهت البصائر عنده » معترك الأقران في اعجاز القرآن للسيوطي ج ١ ص : ١١ .

ومن غير شك فإن هذا الإتجاه عن صعوبة تحقيق الإعجاز ، وتحديد جانب معين يتمثل فيه حق وصواب ، فإدراك الإعجاز من الإعجاز ـ وسيبقى ذلك سراً خالداً ما بقيت السموات والأرض .

ووجدانا ويأتون من أقاصي البلاد في شرق الدنيا وغربها سعياً وراء تعلم لغة القرآن في مهدها واستماعاً إليها من أفواه أبنائها ؟ (١) وإذا كان القرآن الكريم قد تألفت سوره وآياته من الألفاظ التي تألف منها كلام العرب ، ومن الفنون البلاغية التي كانت معروفة لهم ووردت في ثنايا نظمهم ونثرهم - فأي فرق بين القرآن وأساليب العرب ، وأي جديد في بلاغة القرآن التي أعجز القرآن الإنس والجن بها مجتمعين ؟

سوف يحاول البحث بتوفيق الله وتيسير منه أن يقدم بصورة مجملة توضيحاً لهذه التساؤلات التي يعرضها كثير من الناس وترد على خواطرهم والوقوف بشيء من التحديد والتفصيل عند الملامح التي تميز بلاغة القرآن عن بلاغة العرب، والختام بعرض درس تطبيقي في البلاغة القرآنية لغير العرب المهتمين: بتعلم اللغة العربية. ومن الله نستمد العون والتوفيق.

---

(١) خير شاهد وأوضح دليل على هذا مئات الطلاب الذين يدرسون وأدرس لهم اللغة وبلاغتها في مركز تعليم اللغة العربية بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية - ويتنافسون في دراستهم تنافساً لا حد له ، ويقبلون على التهام الدروس واستيعابها إقبالاً منقطع النظير- وأكاد أغبطهم على هذه الهمة العالية وذلك الفناء في تعلم لغة القرآن ، وصورتهم هذه تعيد لي وللعرب والمسلمين صورة علماء المسلمين غير العرب الذين ملأوا الدنيا بعلمهم وينتفع المسلمون في كل مكان بفكرهم أمثال : البخاري وعبد القاهر الجرجاني وجار الله الزمخشري وأبي يعقوب السكاكي وسعد الدين التفتازاني وأبي الأعلى المودودي وأبي الحسن الندوي وكثير غيرهم - مما يؤكد أن الإسلام دين الناس جميعاً ، وأن لغته لغة عالمية بشهادة الواقع وحكم التاريخ .

# الفصل الأول

## علوم البلاغة والإعجاز

ولا يراد من الإعجاز البلاغي الذي كاد معظم الباحثين يتفقون على أنه الوجه الأساسي لإعجاز القرآن ما تضمنه القرآن من فنون البلاغة المعروفة التي بني عليها النظم القرآني من : ذكر وحذق وتعريف وتنكير وتقديم وتأخير وقصر وفصل ووصل وإيجاز وإطناب ومجاز وكناية وطباق ومقابلة وتورية ومشاكلة وجناس وغير ذلك من فنون البلاغة التي تضمها علوم البلاغة الثلاثة في اصطلاح المتأخرين : المعاني والبيان والبديع .

وإنما إعجاز القرآن البلاغي أمر فوق ذلك ، إنه حسن التأليف وروعة الإنسجام وتمام الإحكام ـ وما يبدو أثره الجليُّ في هذا الإيقاع الصوتي وذلك الإنسجام القرآني الذي يهتز له ويتأثر به كل من يطرق سمعه آيات هذا الكتاب العزيز عربياً كان أم أعجمياً.

وقد لقب بعض علماء البلاغة والإعجاز ذلك الإنسجام الذي يعد أثراً من آثار نسج القرآن المحكم بالنظم ـ وتعددت محاولاتهم وتعمقت تأملاتهم حول توضيح سمات ذلك النظم وإبراز خصائصه ـ لكن هذه المحاولات على كثرتها وتعدد مسالكها لا تعدو أن تكون إشارات إلى مواطن من حسن في مشاهد لا تحصى محاسنها .

لذا كانت دراسة البلاغة عموماً ، وبلاغة القرآن بصفة خاصة لا تُؤهِّل

صاحبها لأكثر من معرفة بعض خصائص هذا النظم القرآني ، وفهم شيء من أسراره ، مما جعل الزمخشري يجعلها في مقدمة كشافه أهم العلوم ، وأولها لمن يُهم بالإقدام على دراسة كتاب الله ومحاولة تفسيره ، وقد رأى ذلك أيضاً غير الزمخشري كابن الأثير ضياء الدين ، ويحيى بن حمزة العلوي ، وغيرهما (١) .

وإذا كانت دراسة البلاغة ومعرفة وجوهها وفنونها كما ذكر الزمخشري وغيره تعين صاحبها على الوقوف على أسرار بلاغة القرآن ، وتعينه على المضي في تفسيره فإنها لا تمكنه من تأليف كلام على غرار أسلوب القرآن في تأليفه ونظمه فإن علماء البلاغة والإعجاز على مدى التاريخ الطويل لم يحصروا ما في القرآن من فنون بلاغية ، وخير شاهد على ذلك ألوان البديع الموجودة في القرآن ، فقد عد منها الباحثون ما يُربي على مائتي فن (٢) ، وما يزال الدارسون بالتأمل يستنبطون

(١) يقول الزمخشري في مقدمة الكشاف ج ١ ص : ن ط بيروت : « ثم إن أملأ العلوم بما يغمر القرائح وأنهضها بما يبهر الألباب القوارح من غرائب نكت يلطف مسلكها ، ومستودعات أسرار يدق سلكها ، علم التفسير الذي لا يتم لتعاطيه وإجالة النظر فيه كل ذي علم كما ذكر الجاحظ في كتاب « نظم القرآن » ـ فالفقيه وإن برّز على الأقران في علم الفتاوى والأحكام ـ والمتكلم وإن بزَّ أهل الدنيا في صناعة الكلام ، وحافظ القصص والأخبار وإن كان من ابن القرية أحفظ ، والواعظ وإن كان من الحسن البصري أوعظ ، والنحوي وإن كان أنحى من سيبويه ، واللغوي وإن علك اللغات بقوة لحييه لا يتصدى منهم أحدٌ لسلوك تلك الطرائق ، ولا يغوص على شيء من تلك الحقائق إلا رجل قد برع في علمين مختصين بالقرآن ، وهما : علم المعاني وعلم البيان ، وتمهل في ارتيادهما آونة ، وتعب في التنقير عنهما أزمنة ، وبعثته على تتبع مظانهما همة في معرفة لطائف حجة الله وحرص على استيضاح معجزة رسول الله بعد أن يكون آخذاً من سائر العلوم بحظ » .

فعلم البلاغة إذاً كما يقرر الزمخشري وغيره يعد في مقدمة العلوم التي تعين على فهم أسرار القرآن والاشتغال بالتفسير ، وقد اكتسب علم البلاغة قيمته الدينية بين علوم الإسلام والعربية من هذه الناحية ـ ولذلك افتخر به رسول الله ﷺ ولم يفتخر بعلم آخر ـ فلم يقل مثلاً : أنا أفقه الناس ، ولا أنا أعلم الخلق بالحساب والطب وغير ذلك ، بل افتخر بما اعطاه الله من علم الفصاحة والبلاغة فقال : « أنا أفصح من نطق بالضاد » وقال عليه السلام : « أوتيت خمساً لم يُعطهن قبلي أحد : كان كل نبي يبعث إلى قومه ، وبعثت إلى كل أحمر وأسود ، وأحلّت لي الغنائم ـ وجُعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً ـ ونصرت بالرعب بين يدي مسيرة شهر ، وأوتيت جوامع الكلم . » . انظر : يحيى العلوي ـ الطراز ١ / ٣٢ ، ٣٣ ط المقتطف .

(٢) انظر : فتحي فريد ، رأي في تطوير المنهج البلاغي القديم ـ العدد التاسع من مجلة كلية اللغة العربية

فنوناً وألواناً جديدة لم يشر إليها من تقدم من البلاغيين أو تأخر . كما أن العرب الأوَل أهل اللسن والبيان لم يستطيعوا الإتيان بشيء مثل القرآن على الرغم من كثرة تحديه لهم أن يأتوا بمثله أو بعشر سور مثله أو بسورة واحدة من مثل سوره ـ وكان عجزهم عجزاً لمن يأتي بعدهم من العرب والعجم إلى أن تقوم الساعة (١) .

وأيضاً فإن بلاغة القرآن كما ذكرنا ليست فنوناً بلاغية فحسب ، وإنما هي بناء محكم تألف من مواد هي نفسها التي تألف منها كلام العرب ـ لكن كان تأليف القرآن ونظمه على درجة عالية لم يبلغها أرقى ما عرف العرب من الكلام ، ولذا فإن كثيراً من كلام العرب الأوَل الذين عاصروا القرآن درَس (٢) ، بل إن الفناء شمل معظم ما سجله كبار العلماء والأدباء في كثير من اللغات وبقي القرآن قوي البنيان ، لا تزيده مر الدهور إلا جدَّة، ولا كر الأعصار إلا حلاوة وجمالاً (٣) .

---

بالرياض ١٣٩٩ هـ ـ ١٩٧٩ م ص : ٤١٤ .

(١) وقد ذكر ذلك كثير من الباحثين كالرماني في : النكت في إعجاز القرآن ص : ١١٣ وعبد القاهر في : الرسالة الشافية ص : ١١٨ ، والباقلاني في : إعجاز القرآن ص : ٣٣ ـ والرافعي في إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ص : ٢٢٣ ط ثامنة ـ ونذكر فيما يلي فقرة مما ذكره الرافعي عن إعجاز القرآن لأهل العصر الأول بالأصالة ولمن بعدهم بالتبع ـ إذ يقول في ذلك : « على أن كلامنا . . . في عجز العرب عن معارضة السورة القصيرة من القرآن وعدم تأتيهم لذلك لا يؤخذ منه أن غير العرب المحدثين والمولدين وسائر من يكونون عرباً في اللسان دون الفطرة يستطيعون ما لم يأت لأولئك إذ كانوا دونهم ليس لهم احساس لغوي تستبد به روعة الكلام وتصرفه بالكثير عن القليل ، لتمثل الأصل اللغوي الذي ينبغي أن يكون عليه الوضع والبناء والذي هو في نفسه حقيقة الإعجاز ، لأنه سر التركيب والنظم » .

(٢) أي فنى وزال .

(٣) وقد ردَّ العلامة سعد الدين التفتازاني في المطول على شبهة حول ذلك فقال : « فإن قيل : ليست البلاغة سوى المطابقة لمقتضى الحال مع الفصاحة ، وعلم البلاغة كافل باتمام هذين الأمرين فمن أتقنه وأحاط به لِم لا يجوز له أن يراعيهما حق الرعاية فيأتي بكلام هو في الطرف الأعلى من البلاغة ولو بمقدار أقصر سورة ـ قلنا : لا يعرف بهذا العلم إلا أن هذه الحال تقتضي ذلك الإعتبار مثلاً ، وأما الإطلاع على كمية الأحوال وكيفيتها ورعاية الاعتبارات بحسب المقامات فأمر آخر ، ولو سُلِّم فإمكان الإحاطة بهذا العلم لغير علام الغيوب ممنوع . . . ، وكثيراً من مَهَرة هذا الفن تراه لا يقتدر على تأليف كلام بليغ فضلاً عما هو في الطرف الأعلى » . المطول على التلخيص ص : ٣٠.

# الفصل الثاني

# القرآن وكلام العرب

## أ ـ الألفاظ :

يتردد من وقت لآخر سؤال ملخص : أي فرق بين القرآن وكلام العرب ما دامت الألفاظ واحدة فيهما ؟ بمعنى أن تأليف أسلوب القرآن من نفس الألفاظ التي تألف منها كلام العرب ـ وقد أثير هذا السؤال في النصف الأول من هذا القرن الميلادي (١) ، وتصدى عدد من الباحثين للرد عليه ، وكانوا فريقين :

فريق ذهب إلى موافقة أسلوب القرآن لأساليب العرب ، وكان على رأس هذا الفريق المرحوم الدكتور [ زكي مبارك ] الذي استدل على رأيه بأن القرآن عربي وقد أنزل على قوم يفهمونه ويتكلمون بلسان عربي وكان لهم أدب قوي متين يقرب في روحه وأسلوبه من روح القرآن وأسلوبه ـ حيث كانت البيئة واحدة والعصر واحد وأن رسول الله ﷺ لم يكن إلا بشراً ألهم هداية قومه كما صرح القرآن غير مرة ـ كما استدل الدكتور [زكي مبارك] على ما رآه من موافقة القرآن لأساليب العرب بأن القرآن نفسه قد وصف العرب في عدة مواطن بأنهم أهل فصاحة وجدل وعناد ولم تكن فصاحتهم صمتاً ، ولا جدلهم سكوتاً ، ولا خصومتهم فراراً ، ولا عنادهم انهزاماً ، ولكنهم بالفعل قابلوا القول بالقول والسيف بالسيف نحو ثلث قرن إلى أن انتصر الإسلام ولم يبق من آثار خصومه غير

---

(١) وذلك على صفحات جريدة البلاغ التي كانت تصدر بمصر .

ذكريات الجدل والحرب [1] . فقد استدل الدكتور [ زكي مبارك ] على موافقة القرآن لأساليب العرب بما سبق من فهمهم لمعاني القرآن وبمشاكلة المعجزة لما برع فيه القوم .

ولا يخفى بعد هذا الرأي عن الصواب على الرغم مما كان لصاحبه من منزلة في ميدان اللغة وعلومها ـ فمن الأمور الواضحة اختلاف القرآن في تركيبه عن الأسلوب العربي في تركيبه وإن كانت الأصوات والحروف والألفاظ واحدة في كل ـ وقد تصدى عدد من الباحثين لهذا الرأي بالرد والاعتراض ـ ومنهم الأستاذ : « محمد لطفي جمعه » الذي كتب يوضح أنه ليس هناك مجال للموازنة بين أسلوب القرآن وأساليب العرب ، كما أنه ليس هناك وجه للشبه بين الصورة المفردة المتمايزة التي فاقت كل ما تقدمها وما لحق بها من صور التعبير الإنشائي ـ تلك الصورة الفذة العجيبة للقرآن الكريم ، وبين الصور البليغة الأخرى التي كانت متمثلة في كلام الرسول والصحابة وفصحاء العرب التي ذكر الدكتور « مبارك » أنها من الأدب القوي المتين الذي يقرب في روحه وأسلوبه من روح القرآن وأسلوبه [2] .

كما رد المرحوم الأستاذ : « عبد المتعال الصعيدي » على استدلال الدكتور « مبارك » بمشاكلة المعجزة لما برع فيه القوم كعصا موسى عليه السلام لبراعة قومه في السحر بأن ذلك لم يكن إلا نوعاً من المناسبة لا يقتضي أن يكون هذا من ذاك ، فلم يكن للطب دخل في معجزة عيسى ، ولا للسحر دخل في معجزة موسى عليهما السلام ، وليس هناك إلا مناسبة بين عصا موسى والسحر وكذا بين معجزة كل رسول والصناعة التي مهر فيها من أرسل اليهم ، وهي مناسبة لا تؤدي إلى أن يكون هذا من ذاك أو من نوعه والضد يناسب الضد ، وهما ضدان وليس أحدهما من نوع الآخر ، وكذلك بلاغة القرآن وبلاغة العرب ونثره ونثرهم بينهما من الفرق

---

(١) جريدة البلاغ عدد : ٢١ أغسطس سنة ١٩٣١ م .

(٢) جريدة البلاغ عدد : ٦ سبتمبر سنة ١٩٣١ م .

ما بين عصا موسى والسحر ، وليس أحدهما من نوع الآخر ، وإن كانا يجتمعان في جنس النثر [١] .

أما الفريق الثاني الذي ذهب إلى مباينة أسلوب القرآن لأساليب العرب . فكان على رأسه المرحوم الاستاذ « محمد فريد وجدي » وقد استدل على رأيه بأن أسلوب القرآن من صنع الله ، وليس هناك وجه للموازنة بين ما هو إلهي وما هو بشري [٢] .

والأستاذ « محمد فريد وجدي » يصدر في ذلك عن رأيه في : إعجاز القرآن ـ وهو : الإعجاز الروحي [٣] . وفي رأينا أن هذا الرأي لا يختلف عن الرأي بالصَّرفة [٤] . فإن في كلا الرأيين صداً للباحثين عن القرآن والتأمل في أسراره ، وقد سبق أن بينا أن الآثار الروحية التي تحدث لمن يقرأ القرآن أو يسمعه ناتجة عن نظمه البديع وتأليفه المتقن .

وحيث نرى أن الصواب في القول بمباينة أسلوب القرآن لأساليب العرب ولأهمية هذا الموضوع وتوثق علاقته بما يدور حوله ذلك المبحث وهو : الموازنة بين القرآن وأساليب العرب . فإننا نذكر فيما يلي بعض الوجوه التي تؤكد مباينة القرآن لأساليب العرب وتوضح الفرق بين استعمال الألفاظ في القرآن وكلام العرب .

## ١ ـ مباينة القرآن لأساليب العرب من وجوه إعجازه :

فقد رأى عدد من الباحثين في إعجاز القرآن أن مباينة القرآن لأساليب العرب من وجوه إعجازه ـ وذكر أبو الحسن علي بن عيسى الرماني أن ذلك من

(١) جريدة البلاغ عدد : ٢٨ أغسطس ١٩٣١ م .
(٢) جريدة البلاغ عدد : ٢٠ اكتوبر ١٩٣١م .
(٣) بمعنى أن إعجاز القرآن أمر روحي استأثر الله بعلمه .
(٤) بمعنى أن العرب كان يمكنهم الإتيان بمثل القرآن لولا أن الله صرفهم عن ذلك .

نقض العادة حيث إن العادة كانت جارية بضروب من أنواع الكلام معروفة منها : الشعر ومنها السجع ومنها الخطب ومنها الرسائل ومنها المنثور الـذي يدور بين الناس في الحديث فأتى القرآن بطريقة مفردة خارجة عن العادة لها منزلة في الحسن تفوق به كل طريقة [1] . والقاضي عياض ذكر ضمن الأوجه التي عدَّها في إعجاز القرآن : صورة نظمه العجيب ، والأسلوب الغريب المخالف لأساليب العـرب ومناهج نظمها ونثرها الذي جاء عليه ، ووقفت مقاطع آية وانتهت فواصل كلماته إليه ، ولم يوجد قبله ولا بعده نظير له ، ولا استطاع أحد مماثلة شيء منه ، بل حارت فيه عقولهم . . . ، ولم يهتدوا إلى مثله في جنس كلامهم من نثر أو نظم أو سجع أو رجز أو شعر [2] .

## ٢ ـ تأليف القرآن من ألفاظ العرب جعله أكثر دلالة على الإعجاز :

ومن يُنعم النظر والتأمل يظهر له أن بناء الأسلوب القرآني من نفس الألفاظ التي كانت معهودة للعرب ودائرة في أساليبهم يجعله أدخل في الإعجاز ، حيث فوجىء العرب بالألفاظ التي كانوا يتكلمون بها في تركيب جديد لم يألفوه ، وفي نظم بديع يخرج على المعهود لهم من كل الأساليب بحيث لم يتمكنوا من الإتيان بمثله مما جعل دهشتهم بالغـة وحيرتهـم زائـدة ، وفـي هذا النص الـذي ينقلـه السيوطي عن ابن سراقة ما يزيد ذلك وضوحاً ، يقول السيوطي : قال ابن سراقة : اختلف أهل العلم في وجه إعجاز القرآن ، فذكروا في ذلك وجوهـاً كثيرة كلهـا حكمة وصواب ، وما بلغوا في وجوه إعجازه جزءاً واحداً من عشر معشاره ـ فقال قوم : هو الإيجـاز مع البلاغـة ـ وقـال آخـرون : هو البيان والفصاحـة ، وقـال آخرون : هو الرَّصف والنظم ـ وقال آخرون : هو كونـه خارجـاً عن جنس كلام العرب من النظم والنثر والخطب والشعر مع كون حروفه في كلامهم ومعانيه في

(١) أبو الحسن الرماني : النكت في إعجاز القرآن ص : ١٠٢ .

(٢) القاضي عياض : الشفاء ١/ ١٧٠ وما بعدها ط أخيرة .

خطابهم ، وألفاظه من جنس كلماتهم ، وهو بذاته قبيل غير قبيل كلامهم ، وجنس آخر متميز عن أجناس خطابهم ، حتى إن من اقتصر على معانيه وغيّر حروفه أذهب رونقه ، ومن اقتصر على حروفه وغيّر معانيه أبطل فائدته ، فكان في ذلك أبلغ دلالة على إعجازه [1] .

وهذا الذي ذكره السيوطي نقلاً عن « ابـن سراقـة » قد ردَّه من البـاحثين المعاصرين المرحوم الدكتور « محمد عبدالله دراز » حيث ذكر أن ورود الأسلوب القرآني على نهج الكلام العربي إفراداً وتركيباً يجعله أدخل في الإعجاز وأوضح في قطع الأعذار « ولو جعلناه قرآناً أعجمياً لقالوا لولا فُصِّلت آياتُه ءأعجميٌّ وعربيٌّ قل هو للذين آمنوا هُدىً وشفاءٌ والذين لا يؤمنون في آذانهم وقرٌ وهو عليهم عمى أولئك يُنادون من مكان بعيد » [2] [3] .

ويوافق الباحث على ما ذكره الدكتور « دراز » من أن بناء الأسلوب القرآني من ألفاظ العرب المفردة جعله أدخل في الإعجاز ، غير أنه لا يوافقه على قوله : « وتركيباً » حيث تميز القرآن عن كلام العـرب بتراكيبـه المعجـزة التـي وجدوهـا مختلفة تمام الإختلاف عن تراكيب كلامهم ـ وإن كانت الألفاظ واحدة ـ والدكتور « دراز » نفسُه قد قرر كما سنرى بعد أن القرآن مباين لكلام العـرب بدقـة بنائـه وإحكام تأليفه ـ ومـن المرجّح أن تكون اللفظـة السابقـة « وتركيبـاً » قد ذكرت سهواً .

### ٣ ـ بلاغة الألفاظ في التراكيب:

وحيث تأكد لنا الآن سمو التركيب القرآني وتفوقه على التركيب العربي ، واختلاف الألفاظ في كل من التركيبين وإن كانت واحدة في الأصل يمكننا أن نحكم

(١) السيوطي : الإتقان في علوم القرآن : ٤/ ١٤ .
(٢) د . محمد عبدالله دراز : النبأ العظيم ص : ٨١ ، ٨٢ .
(٣) سورة فُصِّلت : ٤٤ .

بعد ذلك بعدم صواب السؤال الخاص بالألفاظ واتفاق الموجود منها في القرآن مع الموجود منها في كلام العرب وعلاقة ذلك بالإعجاز .

إذ لا يحكم على الألفاظ بالبلاغة أو بعدمها لذاتها أي وهي مقطوعة عن التركيب ، وإنما يكون الحكم بالبلاغة أو بغيرها للتركيب ، كما لا تكون الموازنة بين ألفاظ وألفاظ بعيدة عن التركيب ، وإنما يُوازَن بين التراكيب بعضها وبعض ، أو بين بعض الألفاظ في تركيب وما يماثلها أو يتفق معها في المعنى في تركيب آخر ، ولهذا فرق علماء البلاغة بين الفصاحة والبلاغة ـ وجعلوا الفصاحة من صفات الكلمة المفردة والكلمات المجتمعة بخلو الكلمة أو الكلام مما يعيبه ويقلل حسنه كالتنافر والغرابة ومخالفة القياس وضعف التأليف والتعقيد وغير ذلك من عيوب الكلمة المفردة والكلمات المتتابعة ، بينما جعلوا البلاغة من صفات الكلام فقط ـ وأرادوا بها إحكام تركيبه ودقة تنظيمه بوضع كل كلمة في مكانها المناسب ـ ويبدو ذلك من تعريفهم لها بأنها : مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته .

وقد وازن علماء البلاغة والنقد بين ألفاظ وردت حسنة في أسلوب ووردت بنفسها مستهجنة في أسلوب آخر ـ لتأكيد أن الحكم بالبلاغة والجمال لا يكون للألفاظ وحدها بعيدة عن التركيب ، كما أفاض علماء النظم في شرح هذه المسألة فالقاضي « عبد الجبار بن أحمد » يذكر لنا أن فصاحة الألفاظ المفردة ليس فقط فيما تحمله من معانٍ وإنما في ذلك مع مراعاة وضعها الموضع الملائم لنظم الكلام [1] .

كما يذكر « عبد القاهر » أن أحداً لا يقول : هذه اللفظة فصيحة إلا وهو يعتبر مكانها من النظم وحسن ملاءمة معناها لمعاني جارتها ، وفضل مؤانستها لأخواتها ـ وأنهم لا يقولون : لفظة متمكنة ومقبولة وفي خلافها قلقة ونابية

(١) القاضي عبد الجبار ـ المغني تحقيق : أمين الخولي ١٦/ ٢٠١ .

مستكرهة إلا وغرضهم أن يعبّروا بالتمكن عن حسن الإتفاق بين هذه وتلك من جهة معناهما وبالقلق والنبوّعن سوء التلاؤ م ـ وأن الأولى لم تلق بالثانية في معناها ـ وأن السابقة لم تصلح أن تكون لفقاً للتالية في مؤداها[1].

فذلك أقوى شاهد على عدم صحة الموازنة بين الألفاظ في القرآن الكريم وبين ما اتفق معها في كلام العرب لتباين التركيبين واختلاف موقع الألفاظ في كل .

## ٤ ـ صناعة البيان كصناعة البنيان :

وإذا كان الكلام السابق عن الموازنة بين الألفاظ في القرآن وكلام العرب لا يدركه تمام الإدراك ولا يفهمه حق الفهم إلا من كان على دراية باللغة وفهم لبلاغتها ، فإن ما ذكره الدكتور « دراز » في ذلك كان من الوضوح والبيان بحيث يفهمه معظم الناس من درس منهم اللغة وبلاغتها ومن لم يتيسر له ذلك ـ فماذا فعل الدكتور « دراز » ؟

لقد استخدم مظهراً من مظاهر الحياة يعرفه جميع الناس العربي وغير العربي ، وهو مظهر البناء الذي يعد فناً من الفنون متنوع الأشكال متعدد الفئات والطبقات ـ وعقد الدكتور موازنة بين فن الكتابة والأسلوب وفن البناء ـ ليثبت بالدليل العملي اختلاف الأساليب فيما بينها مع اتفاق الألفاظ التي ألفت منها كما تختلف الأبنية فيما بينها من جهات كثيرة وإن كانت المواد الخام واحدة في جميعها ـ ليخلص من هذه الموازنة إلى عدم الغرابة في تفوق القرآن على أساليب العرب على الرغم من اتفاقه معها في الألفاظ .

والدكتور « دراز » في موازنته بين فن الأسلوب وفن البناء تقريباً للكلام من الأفهام قد سلك مسلك « عبد القاهر الجرجاني » في استخدامه كثيراً من الأعمال التي كانت موجودة في عصره للتمثيل بها على كلامه عن « النظم » ـ كالحَلْي

(١) عبد القاهر : دلائل الإعجاز تحقيق أحمد مصطفى المراغي ط ثانية ص : ٤١ .

والصَّوْغ والصبّغ والنقش والزخرفة والتزيين وغير ذلك.

ونذكر الآن ما قاله الدكتور « دراز » بشيء من التفصيل - فتحت عنوان : « القرآن معجزة لغوية » بين أن صناعة البيان كصنعة البنيان في احتياج كلٍّ منهما إلى موادّ وإنسان على دراية باستخدام هذه المواد الاستخدام المفيد ، إذ يقول عن صناعة البنيان : « فالمهندسون والبناءون لا يخلقون مادة بناء لم تكن في الأرض ، ولا يخرجون في صنعتهم عن قواعدها العامة ، ولا يعدو ما يصنعونه أن يكون جدراناً مرفوعة ، وسقفاً موضوعة ، وأبواباً مشرعة ، ولكنهم تتفاضل صناعاتهم وراء ذلك في اختيار أمتن المواد وأبقاها على الدهر ، وأكنها للناس من الحر والقر - وفي تعميق الأساس وتطويل البنيان ، وتخفيف المحمول منها على حامله ، والانتفاع بالمساحة اليسيرة في المرافق الكثيرة ، وترتيب الحجرات والأبهاء بحيث يتخللها الضوء والهواء ، فمنهم من يفي بذلك كله أو جله ، ومنهم من يخل بشيء منه أو أشياء إلى فنون من الزينة والزخرف يتفاوت الذوق الهندسي فيها تفاوتاً بعيداً »(١) .

ثم انتقل الدكتور « دراز » لتوضيح ما يماثل ذلك من صناعة البيان فقال : « كذلك نرى أهل اللغة الواحدة يؤدون الغرض الواحد على طرائق شتى يتفاوت حظها في الحسن والقبول - وما من كلمة من كلامهم ولا وضع من أوضاعهم بخارج عن مواد اللغة وقواعدها في الجملة - ولكنه حسن الاختيار في تلك المواد والأوضاع قد يعلو بالكلام حتى يسترعي سمعك ، ويثلج صدرك ويملك قلبك ، وسوء الإختيار في شيء من ذلك قد ينزل به حتى تمجه أذنك . . . وينفر منه طبعك »(٢) .

ولما ذكر الدكتور « دراز » في مجال الموازنة بين الفنين أن المواد الخام كثيرة في صناعة البنيان وأن براعة المهندسين ومهارة الصناع والحرفيين تتمثل في

(١) د . محمد عبد الله دراز - النبأ العظيم ص : ٨١ ، ٨٢ .
(٢) المرجع السابق .

وضع كل منها في مكانه الذي هو أولى به مع دقة التناسب وإحكام التأليف - وضح ما يماثل ذلك في صناعة البيان من تعدُّد وجوه اللغة وتنوُّع أساليبها وكثرة مفرداتها ، وأن البلاغة في وضع كل منها موضعه الذي هو أولى به ولا يصلح مكانه غيره في قوله : « ذلك أن اللغة فيها العامُّ والخاص ، والمطلق والمقيد ، والمجمل والمبين ، وفيها العبارة والإشارة ، والفحوى والإيماء والخبر والإنشاء ، وفيها الجملة الإسمية والفعلية ، والنفي والإثبات - والحقيقة والمجاز - والإطناب والإيجاز - والذكر والحذف ، والإبتداء والعطف - والتعريف والتنكير - والتقديم والتأخير - وهلمَّ جراً ، ومن كل هذه المسالك ينفذ الناس إلى أغراضهم غير ناكبين بوضع منها عن أوضاع اللغة جملة ، بل هم في شعابها يتفرقون وعند حدودها يلتقون »[1] .

ثم بين الكاتب أن البلاغة تتمثل في وضع كل لفظ من ألفاظ اللغة في موضعه المناسب « بيد أنه ليس شيء من هذه المسالك بالذي يجمل في كل موطن ، وليس شيء منها بالذي يضج في كل موطن ، إذاً لهان الأمر على طالبه ولأصبحت البلاغة في لسان الناس طعماً واحداً وفي سمعهم نغمةً واحدةً ، كلا ، فإن الطريق الواحد قد يبلغك مأمنك حيناً ، ويقصر بك عن غايتك حيناً آخر ، وب كلمةٍ تراها في موضع ما كالخرزة الضائعة ، ثم تراها بعينها في موضع آخر كالدرة اللامعة ، فالشأن إذاً في اختيار هذه الطرق أيها أحق بأن يسلك في غرض غرض وأيها أقرب توصيلاً إلى مقصد مقصد »[2] .

وانتهى الكاتب من هذه الموازنة الواضحة إلى تقرير ما سبق أن ذكرناه وهو أن اللغة قد استعملت أدق ما يكون الاستعمال في القرآن الكريم - إذ وضع كل مثقال ذرة في موضعها الذي هو أحق بها وهي أحق به - بحيث لا يجد المعنى في لفظه إلا مرآته الناصعة ، وصورته الكاملة ، ولا يجد اللفظ في معناه إلا وطنه

---

(١) د . محمد عبدالله دراز - النبأ العظيم ص : ٨٣ .
(٢) المرجع السابق .

الأمين وقراره المكين ـ لا يوماً أو بعض يوم ، بل على أن تذهب العصور وتجيء العصور وكان أسلوبه بلا جدال المثل الأعلى في صناعة البيان [1] .

وبهذه الموازنة الواضحة بين فن الأسلوب وفن البناء استطاع صاحبها أن يوقفنا ويوقف معظم الناس على سمو أسلوب القرآن الكريم على أساليب العرب على الرغم من اشتراكهما في بعض المواد وأهمها الألفاظ ـ وليس هذا هو كل ما ذكره الدكتور « دراز » في مجال الموازنة بين القرآن وكلام العرب ، بل ذكر أموراً أخرى غيرها ، لا بد أن يرجع اليها ويقرأها كل من يريد الإلمام بهذا الموضوع [2] ـ ولكننا اكتفينا بإيراد ما سبق لتعلقه بموضوع الألفاظ التي يدور الكلام حولها .

كما أن هناك وجوهاً أخرى غير ما سبق توضح ما يتميز به القرآن على كلام العرب وقد ذكرها الباحثون في إعجاز القرآن مثل الباقلاني والزركشي والسيوطي والرافعي ولم نعرض لها كذلك لعدم شديد تعلقها بقضية الألفاظ التي هي محل النقاش [3] الآن . وبعد : فقد وضح مما سبق أن أسلوب القرآن نسيج وحده ، وأن تأليفه من ألفاظ العرب جعله بحق أدخل في الإعجاز وأوضح في قطع الأعذار ـ فلننتقل إذاً إلى فنون البلاغة التي استعملت أيضاً في كل من القرآن وكلام العرب لنتبين قدر سموها في القرآن ، ووجه إعجازها .

---

(١) المرجع السابق ص : ٨٣ ، ٨٤ .

(٢) مثل : القصد فى اللفظ والوفاء بحق المعنى ـ وخطاب العامة وخطاب الخاصة ـ وإقناع العقل وامتاع العاطفة ـ والبيان والإجمال ـ وهي امور أربعة يوضح الكاتب فيها بالتفصيل خصائص الأسلوب القرآني وسموه على كلام العرب. د. محمد عبد الله دراز ـ النبأ العظيم ـ مطبعة السعادة من ص : ١٠٦ ـ ١١٠ .

(٣) مثل : قوة الأسلوب القرآني في كل المواطن ومع جميع المعاني والأغراض بخلاف أساليب العرب التي تختلف قوة وضعفاً من غرض لاخر ومن معنى لغيره ، الباقلاني : إعجاز القرآن ص : ٦٤ وما بعدها ط أولى والرافعي : إعجاز القرآن ص : ٢٢٩ ـ ومثل : خلو القرآن من أدنى آثار الروح الإنسانية ـ وتجرده من مذاهب معينة أو اتجاهات محددة ـ الباقلاني : إعجاز القرآن ص : ١٥٢ وما بعدها .

### ب ـ فنون البلاغة بين القرآن وكلام العرب :

أي ألوان البلاغة المعروفة من : ذكر وحذف وتعريف وتنكير وتقديم وتأخير وقصر وفصل ووصل وإيجاز وإطناب وتشبيه ومجاز وكناية وطباق ومقابلة وجناس وغير ذلك من وجوه النظم ، والتي جمعها البلاغيون المتأخرون في علوم البلاغة الثلاثة : المعاني والبيان والبديع .

والسؤال الذي تردد هناك عن الألفاظ يتردد أيضاً عن فنون البلاغة إذ يقال : أي فرق بين الفنون البلاغية في القرآن وكلام العرب ؟ وبالنظر فيما ذكره الباحثون في إعجاز القرآن قديماً وحديثاً نتبين أن كلامهم اشتمل على الإجابة عن هذا السؤال .

فالخطّابي بعد أن يحدد خصائص البلاغة القرآنية على وجه العموم ـ في : لفظ حسن ومعنى حسن ورباط بينهما ـ ويلقب ذلك : بعمود البلاغة يعود ليوضح أن واحداً من العناصر السابقة قد يرد حسناً في كلام العرب ـ فأما اجتماع العناصر الثلاثة على أحسن وجه فلم يحدث إلا في القرآن الكريم يقول الخطابي : « وإنما يقوم الكلام بهذه الأشياء الثلاثة : لفظ حامل ـ ومعنى به قائم ـ ورباط لهما ناظم ـ وإذا تأملت القرآن وجدت هذه الأمور منه في غاية الشرف والفضيلة حتى لا ترى شيئاً من الألفاظ أفصح ولا أجزل ولا أعذب من ألفاظه ـ ولا ترى نظماً أحسن تأليفاً وأشد تلاؤماً وتشاكلاً من نظمه ، وأما المعاني فلا خفاء على ذي عقل أنها هي التي تشهد لها العقول بالتقدم في أبوابها ، والترقي إلى أعلى درجات الفضل من نعوتها وصفاتها ، وقد توجد هذه الفضائل الثلاث على التفرق في أنواع الكلام ، فأما أن توجد مجموعة في نوع واحد منه فلم توجد الا في كلام العليم القدير الذي أحاط بكل شيء علما ـ وأحصى كل شيء عدداً ـ فتفهم الآن واعلم أن القرآن إنما صار معجزاً لأنه جاء بأفصح الألفاظ في أحسن نظوم التأليف مضمّناً أصح المعاني »[1] . كما أجاب « الباقلاني » صراحة على ذلك التساؤل ـ وقد

(١) الخطابي : بيان إعجاز القرآن ص : ٢٤ .

عرفنا أن من وجوه الإعجاز القرآني عنده : نظمه العجيب وأسلوبه المخالف لكل الأساليب ولما كان كلام العرب يشتمل على بعض فنون البلاغة التي وردت في القرآن مع اختلاف التناول ـ رأى الباقلاني أن وجوه البلاغة « وقد أطلق عليها : البديع » لا تكفي في الوقوف على إعجاز القرآن محتجاً بأنه يمكن التدرب عليها والإتيان بمثلها ـ وغاب عنه أن القرآن وإن كان من جنس كلام العرب في ألفاظه وبلاغته إلا أن تركيبه المعجز ونظمه البديع جعل للألفاظ منزلته لا تُدرك ولفنون البلاغة مكانة لا يُرتقى إليها ـ يقول الباقلاني تحت عنوان : فصل في ذكر البديع من الكلام : « إن سأل سائل فقال : هل يمكن أن يعرف إعجاز القرآن من جهة ما يتضمنه من البديع ؟ قيل : ذكر أهل الصنعة ومن صنف في هذا المعنى من صنعة البديع ألفاظاً نحن نذكرها ، ثم نبين ما سألوا عنه ليكون الكلام وارداً على أمر مبين مقرر وباب مصور ، ثم سرد من ألوان البلاغة التي أطلق عليها البديع : الاستعارة ـ التشبيه ـ الغلو ـ المماثلة المطابقة ـ التجنيس ـ المقابلة ـ الموازنة ـ المساواة ـ الإشارة ـ المبالغة والغلو ـ الإيغال ـ التوشيح ـ رد العجز على الصدر ـ صحة التقسيم ـ صحة التفسير ـ التكميل والتتميم ـ الترصيع ـ الترصيع مع التجنيس ـ المضارعة ـ التكافؤ ـ التعطف ـ السلب والإيجاب ـ الكناية والتعريض ـ العكس والتبديل ـ الالتفات ـ التزييل ـ الاستطراد ـ التكرار ـ الاستثناء »[1] .

ثم رد الباقلاني على سؤال : « هل لأبواب البدَيع فائدة في معرفة الإعجاز؟ فقال : « وقد قدر مقدرون أنه يمكن استفادة إعجاز القرآن من هذه الأبواب التي نقلناها ، وأن ذلك مما يمكن الاستدلال به عليه ، وليس كذلك عندنا ، لأن هذه الوجوه إذا وقع التنبيه عليها أمكن التوصل إليها بالتدريب والتعود والتصنع لها وذلك كالشعر الذي إذا عرف الإنسان طريقه صح منه التعمل له ، وأمكنه نظمه ـ والوجوه التي نقول إن إعجاز القرآن يمكن أن يعلم منها فليس مما يقدر البشر على التصنع له والتوصل إليه بحال[2] » فالباقلاني كما نرى يمنع أن يكون لفنون

(١) الباقلاني : إعجاز القرآن ص : ١٠٠ وما بعدها ط أولى تحقيق : محمد عبد المنعم خفاجي .
(٢) المرجع السابق ص : ١٣٨ .

البلاغة مدخل في الإعجاز بحجة أنه يمكن التوصل إليها بالتعلم والتدرب والمعجز ما لا يقدر على صنع مثله أحد ، لكنا نقول له : إن دراسة وجوه البلاغة لا تؤهل صاحبها لأكثر من الوقوف على روعة النظم القرآني وتذوق جماله ـ وفنون البلاغة في القرآن كما سبق أن ذكرنا لا يمكن إحصاؤها ولا يحيط بها إلاَّ علاَّم الغيوب الخبير بأسرار كلامه ومن يدرس البلاغة ويلم بكل ما ذكر عنها قديماً وحديثاً لا يمكنه أن يأتي بمثل بلاغة القرآن ـ لأن التركيب القرآني أخرج هذه الفنون إلى درجة معجزة يستحيل الوصول إليها كما أخرج ألفاظ العرب في صورة جديدة لم يستطيعوا الإتيان بمثلها ، وإذا كان الإتيان بأسلوب يماثل أسلوب القرآن في إحكام نسجه وروعة تأليفه قد استعصى على العرب الخُلَّص الذين فُطِروا على اللغة وطُبعوا على البلاغة فهل يتيسر ذلك على من يتعلم فنون البلاغة ؟ وكتاب « دلائل الإعجاز » لعبد القاهر الجرجاني ـ لقد ألفه ليجب فيه على مثل السؤال السابق ، وليثبت أن القرآن معجز بنظمه ، مع توضيح الفرق بين النظم في القرآن وكلام العرب ـ يقول عبد القاهر في مطلع كتابه السابق : « معلوم أن ليس النظم سوى تعليق الكلم بعضها ببعض ، وجعل بعضها بسبب من بعض ، والكلم ثلاث : اسم وفعل وحرف ، وللتعليق فيما بينها طرق معلومة . . . وكذلك السبيل في كل شيء كان له مدخل في صحة تعلق الكلم بعضها ببعض ، لا ترى شيئاً من ذلك يعدو أن يكون حكماً من أحكام النحو ومعنى من معانيه ، ثم إنا نرى هذه كلها موجودة في كلام العرب ونرى العلم بها مشتركاً بينهم »[1]

ثم يذكر « عبد القاهر » أن رب سائل يسأل : إذا كان ذلك قد ورد في كلام العرب ، فأية مزية للقرآن ؟ « وإذا كان ذلك كذلك فما جوابنا لخصم يقول لنا : إذا كانت هذه الأمور وهذه الوجوه من التعلق التي هي محصول النظم موجودة على حقائقها وعلى الصحة وكما ينبغي في منثور كلام العرب ومنظومه ورأيناهم قد استعملوها وتصرفوا فيها وكملوا بمعرفتها وكانت حقائق لا تتبدل ولا يختلف بها

---

(١) عبد القاهر : دلائل الإعجاز تحقيق المراغي ط ثانية من ص : ٥ ـ ٨ .

الحال . . . فما هذا الذي تجدّد بالقرآن من عظيم المزية وباهر الفضل والعجيب من الرصف حتى أعجز الخلق قاطبة وحتى قهر من البلغاء والفصحاء القوي والقدر وقيد الخواطر والفكر ؟ [1] .

ويوضح « عبد القاهر » أن من يقرأ كتابه يقف على اجابة ذلك السؤال « فإن كان ذلك يلزمنا فينبغي لكل ذي دين وعقل أن ينظر في الكتاب الذي وضعناه، ويستقصي التأمل لما أودعناه ـ فإن علم أنه الطريق إلى البيان والكشف عن الحجة والبرهان تبع الحق وأخذ به وإن رأى أن له طريقاً غيره أومألنا إليه ودلنا عليه وهيهات ذلك » [2] .

ويرى « حازم القرطاجني » أن البلاغة في القرآن تتمثل في جميع سوره وآياته ، لكنها في كلام العرب لا يتوافر لها ذلك العموم « وجه الإعجاز في القرآن من حيث استمرت الفصاحة والبلاغة فيه من جميع أنحائها في جميعه استمراراً لا يوجد له فترة ، ولا يقدر عليه أحد من البشر ، وكلام العرب ومن تكلم بلغتهم لا تستمر الفصاحة والبلاغة في جميع أنحائها في العالي منه إلا في الشيء اليسير المعدود ، ثم تعترض الفترات الإنسانية فينقطع طيبُ الكلام ورونقه ، فلا تستمر لذلك الفصاحة في جميعه بل توجد في تفاريق وأجزاء منه » [3] .

ومصطفى صادق الرافعي وهو من الباحثين المحدثين في إعجاز القرآن قد حاول أن يعقد موازنة عامة بين الفنون البلاغية في القرآن وكلام العرب ـ فذكر أن كل فنون البلاغة استمدها علماء البلاغة من القرآن الذي تتمثل فيه هذه الفنون على أحسن وجه ، ولذا كان القرآن علم البلاغة عند العرب ثم صار بعدهم بلاغة هذا العلم [4] .

---

(١) المرجع السابق : ص : ٩

(٢) المرجع السابق : ص : ٩ .

(٣) حازم القرطاجني : منهاج البلغاء وسراج الأدباء تحقيق : محمد الحبيب بن الخوجه ص : ٢٨ ، ٢٩ .

(٤) الرافعي : إعجاز القرآن ص : ٢٥٦ ، ٢٥٧ .

كما يرى الرافعي أن فنون البلاغة في القرآن أصل في بنائه ، وصادف كل منها موقعه المتين ، فلا يصح التصرف فيها بأي وجه وإلاّ اختل البناء كما لا يمكن التصرف في ألفاظ القرآن بحذف أو زيادة ، أو تقديم وتأخير ، بينما يمكن التصرف في فنون البلاغة في كلام العرب ولا يكون هناك كبير تأثير ، يقول الرافعي : « ومن أظهر الفروق بين أنواع البلاغة في القرآن وبين هذه الأنواع في كلام البلغاء أن نظم القرآن يقتضي كل ما فيه منها اقتضاءً طبيعياً بحيث يبنى هو عليها لأنها في أصل تركيبه ، ولا تبنى هي عليه ، فليست فيها استعادة ولا مجاز ولا كناية ولا شيء من مثل هذا يصح في الجواز أو فيما يسعه الإمكان أن يصلح غيره في موضعه إذا تبدلت منه ، فضلاً عن أن يفتى به ـ وفضلاً عن أن يُربى عليه ، ولو أدرت اللغة كلها على هذا الموضع ، فكأن البلاغة فيه إنما هي وجه من نظم حروفه »[1] .

ويذكر الرافعي أن الفنون البلاغية في كلام العرب تختلف عن ذلك ، حيث يمكن التصرُّف فيها بوجوه التصرُّف المعروفة ولا يحدث تأثير كبير « بخلاف ما أنت واجد من كلام البلغاء فإن بلاغته إنما تصنع لموضعها وتبنى عليه ، فربما وفت ، وربما أخلفت ولو هي رُفِعت من نظم الكلام ثم نزل غيرها في مكانها لرأيت النظم نفسه غير مختلق »[2] . وعلى ضوء ما سبق يمكننا أن نذكر بعض الفروق بين فنون البلاغة في القرآن وكلام العرب .

١ ـ الفنون البلاغية في القرآن تجل عن الحصر والعدّ ، ولا يحيط بها إلاَّ الله وحده ، بدليل ما يستخرجه الدارسون كل يوم من أسرار جديدة في القرآن لم يتنبه لها السابقون .

٢ ـ ارتقى القرآن بفنون البلاغة إلى درجة معجزة ، يجعل محاولة الإتيان بمثلها مستحيلاً .

---

(١) المرجع السابق ص : ٢١٠ .

(٢) المرجع السابق .

٣ ـ فنون البلاغة في القرآن تشمل جميع سوره ، وتتمثل في كل آياته ، بخلاف ذلك في كلام العرب فلا يتَوافر فيها ذلك الشمول .

٤ ـ المقاييس البلاغية التي اهتدى إليها البلاغيون ، تختلف عند التطبيق بين القرآن وكلام العرب ـ حيث ينتابها القصور مع كلام الله وتفقد شمولها ، لأنها من نتاج الفكر الإنساني الذي يخطىء ويصيب ـ مما يؤكد تفرد القرآن بأسلوبه المتميز الذي لا يستمر في السير على قاعدة معينة ـ ونذكر فيما يلي بشيء من التوضيح بعضاً من مظاهر ذلك القصور .

## الفصاحة

تبدأ كتب البلاغة ولا سيما المتأخرة منها بالحديث عن الفصاحة كجزء من البلاغة ويراد بالفصاحة : الوضوح والظهور ـ وهي تقع وصفاً للكلمة والكلام والمتكلم حيث يقال : كلمة فصيحة وكلام فصيح ومتكلم فصيح .

وحددوا فصاحة الكلمة بخلوها من : تنافر الحروف والغرابة ومخالفة القياس وفصاحة الكلام بخلوه من : تنافر الألفاظ وضعف التأليف والتعقيد ، والألفاظ الطوال ، وتتابع الحركات ، وتتابع الإضافات ، والتكرار [١] .

التنافر :

وعرّفوا تنافر الحروف بأنه : وصف في الكلمة يوجب ثقلها على اللسان وعسر النطق بها ، وأن منه المتناهي في الثقل مثل : الهُعَخُع اسم لنبات ترعاه الإبل ، والأقل ثقلاً مثل : مستشزرات بمعنى مرتفعات [٢] .

وحاولوا أن يبينوا سبباً لتنافر الحروف : فلم يقف بعضهم على سبب محدد له كالخطيب القزويني الذي اكتفى بالتمثيل له ـ ومنهم من رأى أن سببه في تقارب

(١) عبد المتعال الصعيدي : بغية الإيضاح ١/ ١٢ ـ ٢٤ .

(٢) في قول امرىء القيس : غدائره مستشزرات إلى العلا . . . تضل العقاص في مثنى ومرسل

الحروف مخرجاً ، وقد تعارض ذلك مع ورود بعض الألفاظ الحسنة من المتقارب مخرجاً كالجيش والشجي - وورود بعض الألفاظ الثقيلة والصعبة من متباعد الحروف مخرجاً [1] - ورأى ابن الأثير أن ذلك مردُّه إلى الذوق وأن كل ما يعده الذوق الصحيح ثقيلاً متعسر النطق فهو متنافر سواء كان من قرب المخارج أو بعدها أو غير ذلك [2] .

ويعنينا من ذلك في هذا الموطن أن التنافر يعد عيباً من عيوب الكلمة ، وأنه يُخل بفصاحة الكلمة ويُخرجها من دائرة الفصاحة في عرف البلاغيين - ثم يتبين البلاغيون أن بعضاً من هذه الكلمات التي ينطبق عليها وصف التنافر قد وقعت في القرآن الكريم وكانت آية في الحسن لا يتعثر القارىء عندها ، بل لا يكاد المتأمل يُحِسُّ بأدنى الفروق بينها وبين غيرها من ألفاظ القرآن ، فماذا كان تفسير البلاغيين لذلك ؟ لقد رأى بعضهم أن السورة التي وقع فيها مثلُ هذه الألفاظ أي التي ينطبق عليها وصف التنافر [3] لا تخرج عن دائرة الفصاحة كما لا يخرج الكلام العربي عن العربية إذا اشتمل على بعض الكلمات المعرَّبة ، ولم يوافق سعد الدين التفتازاني على هذا الرأي وذكر أن القياس على وقوع مفرد غير عربي في الكلام العربي فاسد لأنه ممنوع ، ولو سُلِّم فالمعنى أنه عربي الأسلوب والنظم ، ولو سُلِّم فباعتبار الأعم الأغلب ، ولم يشترط في الكلام العربي أن يكون كل كلمة منه عربية كما اشترط في فصاحة الكلام أن يكون كل كلمة منه فصيحة فأين هذا عن ذاك ؟ وعلى تقدير تسليم أنه لا يخرج السورة عن الفصاحة لكنه يلزم كونها مشتملة على كلام غير فصيح ، والقول باشتمال القرآن على كلام غير فصيح بل على كلمة غير فصيحة مما يقود إلى نسبة الجهل أو العجز إلى الله ، تعالى الله عما يقول

---

(١) مثل : ملعٌ .

(٢) ابن الأثير : المثل السائر ١/ ٢١٠ - ٢٢٧ تحقيق الدكتورين : الحوفي وطبانه وسعد الدين التفتازاني : المطول على التلخيص ص : ١٧ .

(٣) مثل قوله تعالى : « ألم أعهد اليكم يا بني آدم ألا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين » سورة يس : ٦٠ .

الظالمون علواً كبيراً [1] .

ولعل هذا أول مثال على قصور المقاييس البلاغية وعدم اطرادها بالنسبة لكلام العرب فضلاً عن القرآن الكريم الذي يسمو نظمه المتفرد عن أن يخضع لقاعدة بعينها ، ولذا كانت الإجابة السديدة عن ذلك : أن النظم القرآني جعل مثل هذه الألفاظ حسنة رائعة وأزال عنها الثقل والصعوبة ـ كما ذكر « مصطفى صادق الرافعي » في مناقشته لهذه الألفاظ التي وردت في القرآن على أحسن وجه بينما هي تخرج عن دائرة الفصاحة في حكم البلاغيين يقول الرافعيُّ في تعليقه على قول الله تعالى : « ولقد أنذرهم بطشتنا فتماروا بالنُذُر» [2] موحضاً أسباب الثقل في كلمة « النُّذر » وهي مفردة [3] ، وكيف تحول ثقلها إلى خفة بـدخولها في نظم القرآن وانضمامها لبنائه « النُّذر : جمع نذير والضمة ثقيلة فيها لتواليها على النون والذال معاً فضلاً عن جسأة هذا الحرف ونبوّه في اللسان ، وخاصة إذا جاء فاصلةً للكلام ، فكل ذلك مما يكشف عنه ويفصح عن موضعه الثقل فيه ولكنه جاء في القرآن على العكس وانتفى من طبيعته في قوله تعالى : « ولقد أنذرهم بطشتنا فتماَروا بالنُّذر» فتأمل هذا التركيب وأنعم ثم أنعم على تأمله ، وتـذوق مواقـع الحـروف وأجـر حركاتها في حسِّ السمع ، وتأمل مواضع القلقلة في دال [ لقد ] وفي الطـاء من [ بطشتنا ] وهذه الفتحات المتوالية فيما وراء الطاء إلى واو [ تماَروا ] مع الفصل بالمد كأنها تثقيل لخفة التتابع في الفتحات إذا هي جرت على اللسان ، ليكون ثقل الضمة عليه مستخفاً بعد ، وتكون هذه الضمة قد أصابـت موضعهـا كمـا تكون الأحماض في الأطعمة ، ثم ردِّد نظرك في الراء من [ تماَروا ] فإنها ما جاءت إلا مساندة لراء [ النذر ] حتى إذا انتهى اللسان إلى هذه انتهى إليها من مثلها فلا تخف عليه ولا تغلط ولا تنبو فيه ـ ثم اعجب لهذه الغنة التي سبقت الطـاء في نون

(١) سعد الدين التفتازاني : المطول على التلخيص ص : ١٧ ، ١٨ .

(٢) سورة القمر : ٣٦ .

(٣) أي وهي بعيدة عن التركيب القرآني .

[ أنذرهم ] وفي ميمها ، وللغنة الأخرى التي سبقت الذال في [ النذر ] »[1] .

نعم . إن للقرآن نظمه المتفرد ، وتركيبه المتميز ، الذي تبدو فيه ألفاظ اللغة وفنون البلاغة على صورة غير التي كانت لهما في كلام العرب .

وهذا مثال آخر من فصاحة الألفاظ إذ كان السابق من فصاحة الكلمة وإنه أيضاً يوضح قصور مقاييس البلاغة وعدم اطرادها بالنسبة لكلام العرب عموماً ، وبالنسبة للقرآن بصفة خاصة .

لقد ذكر البلاغيون أن تنافر الكلمات يخرجها من دائرة الفصاحة ، حيث يصعب على الناطق أن ينطقها مجتمعة ، إما لتشابه حروفها مثل قول الشاعر :

وقبر حرب بمكان قفر ... وليس قرب قبر حرب قبر

ففي هذا البيت ثلاث قافات ، وأربع راءات ، وتكرار هذه الحروف جعله في غاية الثقل كما نرى حتى قيل : إنه لا يتأتى لواحد أن ينشده ثلاث مرات إلا تعتع .

وكان من الغريب والمعجز أن يقع في القرآن ما هو أشد من هذا ويجيء غاية في السهولة والخفة - فقد تكررت الميم ثمانيَ مرات متواليات متتابعات في جزء من الآية في قوله تعالى : « قيل يانوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أُمم ممَّن معك . . . »[2] . ففي قوله : « أمم ممن معك » ثماني ميمات متواليات - الأصل : أُممٍ مِن مَن معك قلب تنوين [ أمم ] ميماً ، فهذه ثلاث ميمات - ثم قلبت نون [ مِن ] ميماً ، فهذه خمس ميمات ، ثم قلبت نون [ مَن ] ميماً ، فهذه سبع ميمات ، والميم الثامنة ميم [ معك ] وقلب النون ميماً واجتماع هذه الميمات متفق عليه من جميع القراء ، قراء المتواتر والشواذ - لم يقرأ أحد بغير ذلك ، ولم يعرض أحد من المفسرين لتعليل اجتماع هذه الميمات ، واكتفى بعضهم

---

(١) الرافعي : إعجاز القرآن ص : ٢٥٨ .

(٢) سورة هود : ٤٨ .

بالتعجب من ذلك الذي اختص به القرآن فقد قال ابن المنير : وهذا من الغريب أن تتكرر أمثالٌ ولا يُفطَن لذلك ، ولا يُحِسُّ اللسان منه بثقل ، ولا السمع بنُبوّ، وفي حاشية الأمير : وعدمُ مِجّ السمع لمثل هذا من العجائب المختصة بالقرآن [1] . وإما لتتابع الإضافات كقول ابن بابك :

حمامة جرعى حومة الجندل اسجعي فأنت بمرأى من سعاد ومسمع [2]

وقد اعترض الخطيب القزويني وشاركه سعد الدين التفتازاني على جعل تتابع الإضافات من أسباب تنافر الكلمات ـ لورود الإضافات المتتابعة سهلة وحسنة في قول الرسول عليه السلام : « الكريم بن الكريم بن الكريم بن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم » ، كما تتابعت الإضافات في القرآن الكريم وكانت غاية في الحسن والخفة كقوله تعالى : « مثل دأب قوم نوح » [3] وقوله : « ذكر رحمت ربك عبده زكريا » [4] وقوله : « ونفس وما سوّاها فألهمها فجورها وتقواها » [5], [6] .

وإما لتكرار الأدوات أو الصيغ ـ ولقب ذلك بعض البلاغيين بالمعاظلة ، وذكروا أمثلة لها من كلام العرب كانت غاية في الثقل والصعوبة كقول أبي الطيب :

دانٍ بعيدٍ محبٍ مبغضٍ بهجٍ أغرُّ حُلْوٍ ممرٍّ لينٍ شرس
ندٍ أبيٍّ غرٍ وافٍ أخي ثقةٍ جعيد سريٍّ نهٍ ندْبٍ رضيٍّ ندُسِ

---

(١) محمد عبد الخالق عضيمة ـ مجلة كلية اللغة العربية بالرياض العدد التاسع ص : ١٤ .
(٢) البيت لابن بابك ـ وقد أضيف فيه « حمامة » إلى « جرعى » وهي أرض ذات رمل مستوية لا تنبت شيئاً ـ وإضافة « جرعى » إلى « حومة » وهي معظم الشيء ، وإضافة « حومة » إلى « الجندل » وهي أرض ذات حجارة ـ سعد الدين التفتازاني : المطول ص : ٢٣ .
(٣) سورة غافر : ٣١ .
(٤) سورة مريم : ٢ .
(٥) سورة الشمس : ٧ ، ٨ .
(٦) سعد الدين التفتازاني : المطول على التلخيص ط : أحمد كامل ص : ٢٠ ـ ٢٤ .

وقد ردَّ يحيى العلوي الصعوبة التي اكتنفت البيتين إلى سوء تأليف ألفاظهما والتي تشبه قطع الفضة أو الذهب التي سبكت سبكاً فاسداً ـ ولذلك تكررت الصفات في كلام رب العزة وجاءت على أحسن وجه من السهولة والخفة لحسن التأليف وجودة السبك ـ وذلك في قوله تعالى : « هو الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلامُ المؤمن المهيمن العزيز الجبارُ المتكبِّر سبحان الله عما يشركون . هو الله الخالق البارىء المصوِّر له الأسماء الحسنى يُسَبِّح له ما في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم »[1],[2] .

وأما لطول الألفاظ وتتابع الحركات

أي إن تنافر الكلمات قد يكون من أسبابه في حكم بعض البلاغيين وجود بعض الألفاظ الطويلة ، أو التي تتابعت حركاتها ـ لأن طول الألفاظ بخروجها عن الأوزان المعتادة وهي الثلاثية والرباعية ، وتتابع الحركات عليها يجعلها صعبة وثقيلة ـ ولما وردت بعض الألفاظ الطويلة والمتوالية الحركات في القرآن الكريم غاية في الحسن والخفة ولم يكن بها ثقل ولا صعوبة اكتفى بعض البلاغيين في تعليقه على ذلك بأنه من خصوصيات القرآن الكريم ، لكن واحداً من الذين شغفوا بالتحليل والتعليل والتعمق في فهم أسرار القرآن البلاغية لا يكتفي بذلك ، ويرى أن خفة الألفاظ الطوال والألفاظ التي تتابعت حركاتها في القرآن الكريم يعود إلى العوامل التي اعتمد عليها القرآن في نظم كلامه ونسج ألفاظه من إحكام التآلف ودقة التناسب والترابط بين الحروف وحركاتها والكلمات وحروفها والجمل وكلماتها ـ وقد هيأ القرآن بهذا الانسجام لتلك الألفاظ وما ماثلها أن تصبح من أعذب الألفاظ نطقاً وأخفها تركيباً مثل قوله تعالى : « ليستخلفنهم في الأرض »[3] التي تألفت من عشرة أحرف وجاءت عذوبتها من تنوع مخارج حروفها ونظم

---

(١) العلوي : الطراز ٣ / ٥٦ ، ٥٧ .

(٢) سورة الحشر : ٢٣ ، ٢٤ .

(٣) سورة النور : ٥٥ .

حركاتها ـ وقوله تعالى : « فسيكفيكهم الله . . . » [1] التي تكونت من تسعة أحرف، وقوله : « ولقد أنذرهم بطشتنا فتماروا بالنُّذُر» [2] وقوله : « إن المجرمين في ضلالٍ وسُعُرٍ لله» [3]، [4] .

## الغرابـــة :

وما ذكره البلاغيون المتأخرون أيضاً عن الغرابة كأحد العيوب التي تخرج الكلمة من دائرة الفصاحة يؤكد ما نقرره من أن المقاييس البلاغية لا يتوافر لها تمام التطبيق على النظم القرآني لأنها في عمومها تخضع للتعديل والتغيير كمثل كل فكر إنساني وكلام الله خالد بنظمه المتين ، كما أن ما ذكره البلاغيون عن الغرابة لا يتأتى له الإطراد على أساليب العرب . فقد استقر في أفهام كثير من الدارسين أن الغرابة من عيوب الفصاحة ، وأن اشتمال الأساليب على الغريب من الألفاظ يجلب لها النقص ويجعلها عرضة للنقد . لكن بشيء من التأمل يظهر لنا أن في ذلك كثيراً من الإسراف وأن الغريب ليس معيباً في كل الأحوال وقد يكون حسناً ومن البلاغة في بعض الأحوال .

ويقضي نظام التطور بالنسبة لعموم المخلوقات بصفة عامة وبالنسبة للغة والأدب بصفة خاصة باختلاف الغريب من عصر لعصر ومن جيل لآخر ، فما عُدّ غريباً في وقت من الأوقات قد نراه أشدّ غرابة في وقت لاحق ، وقد نراه مألوفاً في زمن ينتعش فيه الأدب وتزدهر اللغة [5] .

---

(١) سورة البقرة : ١٣٧ .

(٢) سورة القمر : ٣٦ .

(٣) سورة القمر : ٤٧ .

(٤) الرافعي : إعجاز القرآن ص : ٢٥٨ ، ٢٦٠ ، وابن الأثير : المثل السائر ١/ ٢٦٤ ـ ٢٦٦ . ويحيى العلوي : الطراز ١/ ١٠٩ ، ١١٠ .

(٥) فتحي فريد ـ المدخل إلى دراسة البلاغة ص : ٨٢ ، ٨٣ ، ومحمود تيمور : مشكلات اللغة العربية ص : ١٤ .

لذا قد يكون الصواب في استخدام الغريب في بعض الأحوال ـ وفاءً بحكم البلاغة وتطبيقاً لميزانها وهو المطابقة لمقتضى الحال ـ ويعني هذا أن الغريب ليس معيباً في كل الأحوال كما يتوهم ذلك كثير من الدارسين (١) .

وأما قصور كلام البلاغيين المتأخرين عن الغرابة عند التطبيق على كلام الله عز وجل فإنا نعرف أن القرآن الكريم قد اشتمل على عدد كبير من الألفاظ الغريبة ـ ولو لم يكن الدارس على صلة وثيقة بالتراث البلاغي والأدبي المتقدم ووقف عند ما ذكره البلاغيون المتأخرون عن الغرابة كعيب من عيوب الفصاحة لفهم خطأ أن القرآن اشتمل على ما هو أقل فصاحة .

لقد اشتمل القرآن على كثير من الألفاظ الغريبة التي اقتضاها نظمه واستلزمتها بلاغته وقد تتبع الباحثون هذه الألفاظ فرأوا أنها تتمثل في طائفتين :

الطائفة الأولى : وهي ألفاظ عربية غريبة استعملها القرآن لغرابة الموقع الذي وضعت فيه كلفظ « ضيزى » من قوله تعالى : « تلك إذاً قسمةٌ ضيزى » (٢) بمعنى : جائرة أو ظالمة ـ وقد آثر القرآن اللفظة الغريبة لغرابة الموقع الذي وضعت فيه ـ وهو زعم الكفار الباطل أن الملائكة والأصنام بنات لله مع أولادهم البنات ـ فقال تعالى : « ألكم الذكر وله الأنثى . تلك إذاً قِسمةٌ ضيزى » فكانت غرابة اللفظة أشد الأشياء ملاءمة لغرابة هذه القسمة التي أنكرها ـ وقد خرجت الكلمة من غرابتها بحسن موقعها من نظم القرآن ، حيث وقعت فاصلة للآية فانسجمت مع ما قبلها وما بعدها وكان لها ذلك الإيقاع الجميل (٣) .

---

(١) من المعلوم أن لكل جماعة من الناس أسلوباً معيناً تخاطب به ، فمخاطبة السوقة والعوام بلغة الأدب والشعر عيٌ وجهل ، ومخاطبة الأدباء والعلماء بلغة العوام جهل كذلك ، فالواجب إذاً كما ذكر أبو هلال العسكري : أن تقسم طبقات الكلام على طبقات الناس ، فيخاطب السوقى بكلام السوقة والبدوي بكلام البدو ، ولا يتجاوز به عما يعرفه إلى ما لا يعرفه ، فتذهب فائدة الكلام ـ وتعدم منفعة الخطاب . أبو هلال العسكري : الصناعتين ص : ٢٠ ، ٢١ وفتحي فريد : المدخل ص : ٨٥ .

(٢) سورة النجم : ٢٢ .

(٣) وقد وضح الرافعي كيف ائتلفت الكلمة مع النظم القرآني وأصبح لها ذلك الإيقاع الحسن بقوله :

أما الطائفة الثانية من الألفاظ الغريبة في القرآن فهي الكلمات المعرَّبة من اللغات الأخرى غير العربية كالحبشية والسريانية والعبرية والفارسية وغيرها ، وقد استعملها القرآن للإحتياج إليها وعدم وجود ما يسد مسدَّها من ألفاظ اللغة العربية ، وذلك مثل كلمة : « استبرق » فإذا أريد الاستغناء عنها احتيج إلى كلمتين فقيل : الديباج الثخين ـ والكلمة اولى من الكلمتين وهي متعينة حيث لم يضع العرب بدلاً منها ولذلك يقول السيوطي : «لو اجتمع فصحاء العالم وأرادوا أن يتركوا هذه اللفظة ويأتوا بلفظ يقوم مقامها في الفصاحة لعجزوا عن ذلك»[(١)].

ونحن نتحدث عما ورد في القرآن من ألفاظ غريبة ننبه إلى أن القرآن لم يستعمل من هذه الألفاظ الغريبة إلا التي التأمت مع نظمه وانسجمت مع بنائه ، ولم يستعمل الألفاظ التي لم تكن صالحة لذلك ـ مثل : [الآجر] فعندما احتاج القرآن لاستعمالها لم يستعملها ولم يستعمل مرادفها وهو : [القرمد] لعدم ائتلافهما وصعوبة انسجامهما مع نظم القرآن ، وعبر عنهما بإشعال النار على الطين وذلك أعلى مراتب الفصاحة وأسمى مراقي البلاغة [(٢)] .

---

« وإن نعجب فعجب نظم هذه الكلمة الغريبة وائتلافه على ما قبلها ، إذ هي مقطعان : أحدهما مدٌّ ثقيل ، والآخر مدٌّ خفيف ـ وقد جاءت عقب غنتين في « إذن » و« قِسمة » وإحداهما خفيفة حادة والأخرى ثقيلة متفشية ، فكأنها بذلك ليست إلا مجاورة صوتية لتقطيع موسيقى » الرافعي : إعجاز القرآن ص : ٢٦١ وما بعدها .

(١) السيوطي : معترك الأقران ١/ ١٩٧، ود . أحمد أحمد بدوي ـ من بلاغة القرآن ط ثالثة ص : ٩٤ ويقول الرافعي في ص : ٧٥ من إعجاز القرآن : « إن العلماء قد عدّوا في القرآن من غير لغات العرب أكثر من مائة لفظة ترجع إلى لغات الفرس والروم والنبط والحبشة والبربر والسريان والعبران والقبط وهي كلمات أخرجتها العرب على أوزان لغتها وأجرتها في فصيحها فصارت بذلك عربية ، وإنما وردت في القرآن لأنه لا يسدُّ مسدَّها إلا أن توضع لمعانيها ألفاظ جديدة على طريقة الوضع الأول ، فيكون قد خاطر العرب بما لم يوقفهم عليه ، وما لا يدركون بفطرتهم اللغوية وجه التصرف فيه ، وليس ذلك مما يستقيم به أمر ولا هو عند العرب من معاني الإعجاز في شيء ـ ولذا قال العلماء في تلك الألفاظ المعرَّبة التي اختلطت بالقرآن : إن بلاغتها في نفسها أنه لا يوجد غيرها يغني عنها في مواقعها من نظم الآيات لا إفراداً ولا تركيباً » .

(٢) ويقول الرافعي معلقاً على الآية السابقة : « وقال فرعون يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري فأوقد=

ونقول في ختام الحديث عن الغرابة : إن كلام البلاغيين المتأخرين عنها ينبغي أن يتناوله التطور بحيث يكون الإستعمال هو مقياسها ـ كما نفهم أن الغريب المعيب هو المتكلف وما لا داعي له أما الغريب الذي يقتضيه الحال ويدعو إليه المقام ولا يوجد ما يسدُّ مسدَّه فهو في ذروة الفصاحة وقمة البلاغة كغريب القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف ، والمختار من كلام العرب .

وما ذكرناه فيما سبق عن التنافر والغرابة يؤكد لنا أن نظم القرآن المتفرد أجل من أن يضبط بأحكام من صنع البشر تحتمل الحذف والزيادة والتعديل والتبديل ، وفي هذا ما يزيدنا إقبالاً على القرآن تأمُّلاً في أسراره وبحثاً عن المكنون من بلاغته ، وعدم الاكتفاء بما استخرجه السابقون .

## التكرير

التكرير أحد وجوه الإطناب ، ويراد به : تكرير بعض أجزاء الكلام لأسرار بلاغية وقد وقع التكرير في القرآن كثيراً وكان آيةً في الحسن والبلاغة لا تملُّه النفس ولا تصدُّ عنه الأذن لأنه اعتمد على أسباب جعلت كل مكرَّر جديداً في موطنه ـ ومن هذه الأسباب : التهويل أي تفخيم المكرَّر حيث يجعل مقدمة لأمر عظيم القيمة متناهي الوصف كتكرار يوم القيامة غير مرَّة لمَّا كان ما بعده شيئاً كبيراً في قول الله تعالى : « الحاقَّة ما الحاقَّة . وما أدراك ما الحاقة . كذبت ثمود وعادٌ بالقارعة » فقد كان هذا التكرار للتهويل وما بعده أمر خطير وهو تكذيب عاد وثمود بيوم القيامة ـ وكقوله تعالى : « القارعة ما القارعة . وما أدراك ما القارعة . يوم يكون الناس كالفراش المبثوث . . . » . فكان التكرار أيضاً لتهويل ذلك اليوم الذي يحدث فيه ما ذكرته الآيات التالية ومن أوضح الشواهد على الفرق بين التكرير في القرآن وكلام العرب للسبب السابق ما ذكره بعض المعارضين للقرآن من عبارات

= لي يا هامان على الطين . . . » . وانظر : هل تجد في سر الفصاحة وفي روعة الإعجاز أبرع أو أبدع من هذا ؟ وأي عربي فصيح يسمع مثل هذا النظم وهذا التركيب ولا يملكه حسه ، ولا يسوغه حقيقة نفسه ، ولا يجن به جنوناً ، ولا يقول : آمنت بالله رباً وبمحمد نبياً وبالقرآن معجزة » .

على حذو تكرار القرآن السابق ، وكانت مثلاً في الضعف والتهافت لأنها لم تقع الموقع الذي وقعه تكرار القرآن مثل قول القائل : « الفيل وما الفيل . وما أدراك ما الفيل . له مشفر طويل وذنب أثيل وما ذاك من خلق ربنا بقليل » ، وقد أظهر عدد من الباحثين سُخف هذا القول وغيره ، ومن أهم ما قيل في نقد مثل هذه الأساليب الركيكة ما ذكره الخطابي في إضعاف هذا القول : « فيقال الآن لصاحب الفيل : افتتحت قولك بـ : الفيل وما الفيل وما أدراك ما الفيل - فهوّلت وروّعت ، ثم أخلفت ما وعدت . . . وعلى ذكر الذنب والمشفر اقتصرت ، ولو كنت تعرف شيئاً من قوانين الكلام وأوضاع المنطق ورسومه لم تحرف القول عن جهته ، ولم تضعه في غير موضعه ، أما علِمت يا عاجز أن مثل هذه الفاتحة إنما تجعل مقدمة لأمر عظيم الشأن فائق الوصف متناهي الغاية في معناه . . . وأنت علّقت هذا القول على دابّة يدركها البصر في مدى اللحظة ويحيط بمعانيها العلم في اليسير من مدة الفكر ، ثم اقتصرت من عظيم ما فيه من العجب على ذكر المِشفر والذنب فما أشبّه قولك هذا إلا بما أنشدنيه بعض شيوخنا لبعض نظرائك :

وإني وإني ثم إني وإنني      إذا انقطعت نَعْلى جعلت لها شِسْعا [1]

## الإيجاز

من أوضح فنون البلاغة التي تضمنت موازنة بين أسلوب من أساليب القرآن وآخر من أساليب العرب وردا في معنى واحد فن الإيجاز ، حيث وازن البلاغيون بين قول الله تعالى : « ولكم في القصاص حياة . . . » [2] وقول العرب في هذا المعنى : « القتل أنفى للقتل » - واتفقوا على أبلغية قول الله وتفضيله على قول العرب بعدد من الميزات منها :

١ - أنه أكثر فائدة - حيث اشتمل على ما تضمنه القول المأثور وزاد عليه معاني

(١) الخطابي : بيان إعجاز القرآن ص : ٥٢ ، ٥٣ .

(٢) سورة البقرة : ١٧٩ .

حسنة منها : أ ـ إبانة العدل لذكره القصاص . ب ـ وإبانة الغرض المرغوب فيه لذكر الحياة ـ ج ـ والإستدعاء بالرغبة والرهبة لحكم الله به .

٢ ـ أنه أوجز في العبارة ، فإن القتل أنفى للقتل أربعة عشر حرفاً ، وقول الله عشرة أحرف .

٣ ـ أنه أبعد من الكلفة بخلوه من التكرار ـ وفي « القتل أنفى للقتل » تكرير يجعل قول الله أبلغ منه .

٤ ـ أنه أحسن تأليفاً بالحروف المتلائمة، وذلك مدرك بالحسّ، فإن الخروج من الفاء إلى اللام أعدل من الخروج من اللام إلى الهمزة لبعد الهمزة من اللام ، وكذلك الخروج من الصاد إلى الحاء أعدل من الخروج من الألف إلى اللام ، فباجتماع تلك الميزات يصبح قول الله أبلغ وأحسن ، وإن كان الأول بليغاً حسناً[1] .

وعلى الرغم من وضوح أفضلية قول الله على قول العرب ، واتفاق معظم البلاغيين على النقاط السابقة التي تميز بها النص القرآني فإنه قد ظهر من بعض الدارسين المحدثين من يتشكك في تلك الأفضلية ، إذ نشرت جريدة « كوكب الشرق » التي كانت تصدر بمصر في مطلع هذا القرن مقالاً لأحد الدارسين[2] يقدِّم فيه قول العرب على قول الله على خلاف ما اتفق عليه البلاغيون ، وقد رأى ذلك الكاتب أن الآية الكريمة مأخوذة من القول العربي الذي يفضلها بعدة ميزات منها :

١ ـ الإيجاز الساحر فيها : فإن « القتل أنفى للقتل » ثلاث كلمات لا أكثر ، والآية سبع كلمات .

٢ ـ الإستقلال الكتابي وفقد التعاقد بينها وبين شيء آخر سابق عليها .

---

(١) الرماني : النكت في إعجاز القرآن ص : ٧١ ، ٧٢ .

(٢) اسمه : حسن القاياتي .

٣ ـ إن قول العرب ليس متصلاً في آخره بفضل من القول يغنى عنه على حين تتصل الآية بما تغني عنه من القول ويعد كالفضل وهو كلمتا: «يا أولي الألباب» و«لعلكم تتقون» وإن كان لا زيادة في القرآن ولافضول[1]. وقد أثارت هذه الكلمة ثائرة العلماء والباحثين فهبوا لتفنيدها وتوضيح ما فيها من قصورٍ وتجنٍ على القرآن، وكان في مقدمتهم صاحب «إعجاز القرآن والبلاغة النبوية» «مصطفى صادق الرافعي».

وكتب الرافعي مقالاً في جريدة « البلاغ » تحت عنوان : « كلمة مؤمنة في ردّ كلمةٍ كافرة »[2] وبدأه بإبطال هذه البراهين المفتراة التي اعتمد عليها صاحبها في تفضيل القول العربي على قول الله فبين الرافعي : أن هذا القول مولّد وليس جاهلياً ، وأنه ذكر بعد نزول القرآن ، وأخذ من الآية ، والتوليد بيِّن فيه وأثر الصنعة بادٍ عليه ، وأن المقابلة في المعاني المتماثلة إنما تكون بالألفاظ التي تؤدي هذه المعاني دون ما تعلَّقت به أو تعلق بها مما يصل المعنى بغيره أو يصل غيره به ، إذ أن الموازنة بين معنيين لا تكون إلا في صناعة تركيبهما ، كما ذكر الرافعي أن الإيجاز في القول العربي ليس من الإيجاز الساحر كما وصفه الكاتب بل إنه من الإيجاز الساقط ، كما أنه لا يسمو إلى درجة الإيجاز في الآية ولا يتعلق به فضلاً عن أن يشبهه ، إذ لا بد في فهم صيغة التفضيل من تقدير المفضل عليه فيكون المعنى : « القتل أكثر نفياً للقتل من كذا » وأما قوله تعالى : « يا أولي الألباب لعلكم تتقون » فإن إعجاز الآية لا يتم إلا بها إذ أريد أن تكون معجزة زمنية[3] .

ثم يذكر الرافعي أنه على فرض صحة إسناد القول العربي إلى عرب الجاهلية فإن الضعف ظاهر فيه والفتور بادٍ عليه ، وأنه يشبه أن يكون لغة قاطع طريق يتوثَّب على الحلال والحرام لا يخرج لشأنه إلا مقرِّراً في نفسه أنه إما قاتل أو

---

(١) الرافعي : وحي القلم ٣/ ٤٦٦ ط. التجارية .

(٢) الرافعي : جريدة البلاغ عدد نوفمبر سنة ١٩١٢ م .

(٣) الرافعي : وحي القلم ٣/ ٤٦٨ . وما بعدها .

مقتول ، ولذلك تكرَّر فيها القتل على طرفيها ، فهو من أشنع التكرار وأفظعه كما أن فيها الجهل والظلم والهمجية »[1] .

بهذا الفكر الثاقب والنظر الواعي أظهر الرافعي ما في القـول العربـي من قصور يجعله دون قول الله بمراحل ، كما وضح بالأدلة الدامغة وهـن البـراهين المفتراة التي اعتمد عليها الكاتب السابق في رأيه الجائر .

ولم يكتف الرافعي بذلك بل وضع الآية الكريمة تحت عينيه ، وأعمل فيها فكره المتوقد وأخذ يحصي ويتتبع أسرار بلاغتها ، وروعة الإيجاز فيها ، وجمال وقعها وحسن تأليفها وعظيم أثرها حتى أحصى من ذلك ثلاثة عشر وجهاً مختتماً كلامه بقوله : « فإذا كان في الآية الكريمة ما رأيت ، ثلاثة عشر وجهاً من وجوه البيان المعجز ، فمعنى ذلك من ناحية أخرى أنها أسقطت الكلمة العربية ثلاث عشرة مرة »[2] .

## فنون البيان

البيان أحد علوم البلاغة الثلاثة وفنونـه هي : التشـبيه والمجـاز والكنـاية والفرق بين تلك الفنون في القرآن الكريم وكلام العرب ، أنها في القرآن الكريم قد وقعت في موضعها ، وناسبت غرضها ، فحققـت الهـدف الـذي وردت له ، فأصبحت مستقرة في مكانها استقرار كل من الحرف والكلمة في موضعهما ـ ومن ثم لا يمكن التصرف فيها بوجه من وجوه التصرف كما لا يمكن التصرف في حروف القرآن وألفاظه وخير ما يوضح خصائص هذه الفنون في القرآن الكريم قول عبد القاهر وهو يرد إعجاز القرآن إلى النظم لتمثله في جميع سور القرآن وآياته ، وأن فنون البيان من مقتضيات هذا النظم عنها يحدث وبها يكون « فإن قيل قولك إلا النظم يقتضي إخراج ما في القرآن من الاستعارة وضروب المجاز مَن جملة ما هو به

(١) المرجع السابق : ص : ٤٧٠ .

(٢) الرافعي : وحي القلم ٣/ ٤٧١ وما بعدها .

معجز وذلك ما لا مساغ له ، قيل : ليس الأمر كما ظننت ، بل ذلك يقتضي دخول الاستعارة ونظائرها فيما هو به معجز ، وذلك لأن هذه المعاني التي هي الاستعارة والكناية والتمثيل وسائر ضروب المجاز من بعدها من مقتضيات النظم وعنها يحدث وبها يكون ، لأنه لا يتصور أن يدخل شيء منها في الكلم وهي أفرادٌ لم يتوخَّ فيما بينها حكم من أحكام النحو ، فلا يتصور أن يكون ههنا فعل أو اسم قد دخلته الاستعارة من دون أن يكون قد ألف مع غيره ، أفلا ترى أنه إن قدِّر في « اشتعل » من قوله تعالى : « واشتعل الرأس شيباً »[1] ألا يكون « الرأس » فاعلاً له ويكون « شيباً » منصوباً عنه على التمييز لم يتصور أن يكون مستعاراً ، وهكذا السبيل في نظائر الإستعارة »[2] فعبد القاهر كما رأينا يجعل هذه الفنون من مقتضيات نظم القرآن وأننا لو حاولنا أن نتصرف في الآية السابقة بوجه من وجوه التصرف لتكون على صورة أخرى غير صورتها في القرآن لتغير معناها ولما أدت الغرض الذي يؤديه النظم القرآني ، وواضح أن النظم القرآني في الآية يفيد عموم الشيب وشموله لجميع أجزاء الرأس وذلك ناشىء عن الإستعارة في « اشتعل » والمجاز الإسنادي أو التركيبي في وقوع « الرأس » فاعلاً لها .

والرافعي قد ألمح إلى الفرق بين هذه الفنون في القرآن وكلام العرب ، فرأيناه مرة يقيسها على حروف القرآن وألفاظه وجمله بمعنى أن كل فن من فنون البيان وما ماثلهما من فنون البلاغة معجز في موضعه كإعجاز كل من الحرف والكلمة والجملة في مواضعهما«ولسنا نقول إن القرآن جاء بالإستعارة لأنها استعارة أو بالمجاز لأنه مجاز أو بالكناية لأنها كناية ، أو ما يطردُ مع هذه الأسماء والمصطلحات ، إنما أريد به وضعٌ معجز في نسق ألفاظه ، وارتباط معانيه على وجوه السياستين من البيان والمنطق فجرى على اصولهما في أرقى ما تبلغه الفطرة اللغوية على اطلاقها في هذه العربية ، فهو يستعير حيث يستعير ، ويتجوز حيث

---

(١) سورة مريم : ٤ .

(٢) عبد القاهر : دلائل الإعجاز ص : ٢٥٨ ، ٢٥٩ .

يتجوز ، ويطنب ويوجز ويؤكد ويعترض ويكرر إلى آخر ما أحصى في البلاغة ومذاهبها ، لأنه لو خرج عن ذلك لخرج من أن يكون معجزاً في جهة من جهاته ولاستبان فيه ثمة نقصٌ يمكن أن يكون في موضعه ما هو أكمل منه وأبلغ في القصد والاستيفاء - فالعلماء يقولون : إن كل ذلك فنون من البلاغة وقع بها الإعجاز لأنهم اصطلحوا على هذه التسمية التي حدثت بعد العرب ، ولو قالوا إن القرآن معجز في العربية لأن الفطرة والعقل لا يبلغان مبلغه في سياستي البيان والمنطق بهذه اللغة لكان ذلك أصوب في الحقيقة وأبلغ في حقيقة الصواب وأمكن في معنى الإعجاز ، وأتم في هذا الباب كله ما دام في لسان الدهر حرف من العربية [1] .

ومرة أخرى نرى الرافعي وهو يتحدث عن الفرق بين هذه الفنون في القرآن وكلام العرب يحذو حذو « عبد القاهر » فيجعل هذه الفنون في القرآن من مقتضيات نظمه ، فلا يصح التصرف فيها بحال من الأحوال ، بينما يمكن التصرف فيها في كلام العرب ولا يتغير المعنى كثيراً ، ولا نلمح في نظم الكلام اختلافاً واضحاً « ومن أظهر الفروق بين أنواع البلاغة في القرآن وبين هذه الأنواع في كلام البلغاء أن نظم القرآن يقتضي كل ما فيه منها اقتضاءً طبيعياً بحيث يبنى هو عليها لأنها في أصل تركيبه ولا تبنى هي عليه ، فليست فيها استعادة ولا مجاز ولا كناية ولا شيء من مثل هذا يصح في الجواز أو فيما يسعه الإمكان أن يصلح غيرُه في موضعه إذا تبدَّلته منه فضلاً عن أن يفتى به ، وفضلاً أن يُربى عليه ، ولو أدرت اللغة كلها على هذا الموضع ، فكأن البلاغة فيه إنما هي وجه من نظم حروفه ، بخلاف ما أنت واجد من كلام البلغاء - فإن بلاغته إنما تصنَع لموضعها وتُبنى عليه ، فربَّما وفَّت وربَّما أخلفت ، ولو هي رُفِعت من نظم الكلام ثم نزل غيرُها في مكانها لرأيت النظمَ نفسه غير مختلف » [2] .

---

(١) الرافعي : إعجاز القرآن ص : ٢٥٨ .

(٢) الرافعي : إعجاز القرآن ص : ٢٣٩ .

# السجع

عرفنا أن الفنون البلاغية في القرآن لا يمكن التصرف فيها بحال لأنها من مقتضيات نظمه ، وعنها يحدث وبها يكون ، وعلى هذا نستطيع أن نقول : إن في القرآن سجعاً وأن السجع القرآني يختلف عن السجع في كلام العرب مثل كل فنون البلاغة . حيث اعترض بعض البلاغيين على تسمية ما في القرآن سجعاً ولقبوه بالفواصل محتجين بأن السجع يتبع فيه المعنى اللفظ على خلاف الفاصلة التي يتبع اللفظ فيها المعنى ، وردّ على ذلك المجوِّزون بأنه إن أريد بالسجع ما جاء تابعاً للمعنى وكأنه غير مقصود فذلك بلاغة والفواصل مثله ، وإن أريد به ما جاء المعنى تبعاً له وكان مقصوداً متكلفاً فذلك عيب والفواصل مثله [1] .

كما احتج المنكرون لوجود السجع في القرآن بإنكار الرسول ﷺ له في قول القائل : « كيف ندى من لا شرب ولا أكل ولا صاح فاستهلّ ؟ أليس دمه قد يُطَلّ ؟ أسجعاً كسجع الكهان ؟ [2] ورد المجوِّزون أن الإنكار لم يكن للسجع وإنما كان لهذا الحكم في كلام الكاهن ـ وأن الإنكار لو كان للسجع لقال الرسول أسجعاً ؟ وسكت ، وكيف ينكره وقد ورد كثير من كلامه مُسجعاً ـ حتى إنه ربما غيَّر الكلمة عن وضعها موازنة لأخواتها كقوله عليه السلام : « أعيذه من الهامَّة والسامَّة ومن كل عين لامَّة » أي : مُلِمَّة ـ وقوله : « ارجعن مأذورات غير مأجورات » أي : موزورات لأنه من الوزر ، وقوله يوم الخندق : « اللهم إن العيش عيش الآخرة فاغفر للأنصار والمهاجرة ـ أي المهاجرين أما احتجاج الذين ينفون السجع من القرآن بأن السجع موجود في كلام العرب والقول بأن في القرآن سجعاً يجعله داخلاً في كلام العرب فإن ما ذكرناه غير مرةٍ في هذا البحث فيه أوضح ردٍّ على ذلك وهو أن نظم القرآن البديع جعله مبايناً لكل ما عهده العرب من أساليب وإن تألف هذا

(١) ابن سنان الخفاجي : سر الفصاحة تحقيق : عبد المتعال الصعيدي ص : ١٦٥ .

(٢) وديت القتيل أديه دية : أعطيت ديته ـ استهل الصبي : صاح عند الولادة ـ طُلَّ دمُه : بالبناء للمفعول : أهْدِر .

النظم من نفس ألفاظهم ومن الفنون البلاغية التي وردت في كلامهم .

وإذا كان قد شاع في العصور المتأخرة أن السجع من المحسنات البديعية التي تضفي على الأساليب جمالاً ولا أثر له في بلاغة الكلام فإنا بينا وجه الصواب في ذلك [1] ـ وأن السجع كأي فن من فنون البلاغة إذا اقتضاه الحال واستلزمه المقام كان من صميم البلاغة وإن كان متكلفاً كان معيباً وغير مقبول ، كما أن تركه وعدم استعماله إذا اقتضى المقام ذلك إخلال بالبلاغة كما ذكر « عبد القاهر » في مقدمة « أسرار البلاغة » في قوله : « فقد تبين من هذه الجملة أن المقتضى اختصاص هذا النحو بالقبول هو أن المتكلم لم يقد المعنى نحو التجنيس والسجع ، بل قاده المعنى إليهما ، وعبّر به الفرق عليهما حتى إنه لو رام تركهما إلى خلافها مما لا تجنيس فيه ولا سجع لدخل من عقوق المعنى وإدخال الوحشة عليه في شبيه بما ينسب إليه المتكلف للتجنيس المستكره والسجع النافر » [2] فالسجع من فنون البلاغة إذا اقتضاه الحال ودعا إليه المقام ، ولا تحرُّج من القول بوجوده في القرآن لأنه في القرآن ككل فنون البلاغة التي اقتضاها نظمه ، والفرق بينه في القرآن وكلام العرب واوضح ومعروف كالفرق بين المطبوع والمصنوع - ولهذا لما قال مُسيلمة في معارضته: «يا ضفدع نقي كم تنقين، لا الماء تكدرين، ولا الوارد تنقرين» ولما قال بعضهم: «ألم تر إلى ربك كيف فعل بالحبلى ـ أخرج منها نسمةً تسعى بين شراسيق وحشي » . قال أبو بكر رضي الله عنه حين طرقت سمعه : أشهد أن هذا الكلام لم يخرج من بال ، وعلق عليه الخطابي بقوله : « إنه كلام خال من كل فائدة ، لا لفظه صحيح ، ولا معناه مستقيم ، ولا فيه شيء من الشرائط الثلاث التي هي أركان البلاغة » [3] .

وبعد : فهذه نماذج من علوم البلاغة الثلاثة : المعاني والبيان والبديع

---

(١) فتحي فريد : البديع ص : ٢٧ وما بعدها .

(٢) عبد القاهر : مقدمة أسرار البلاغة ص : ٩ ط سادسة .

(٣) الخطابي : بيان إعجاز القرآن ص : ٥٠ ، ٥١ .

أوردناها للتمثيل بها على الموازنة بين فنون البلاغة في القرآن وكلام العرب وانتهينا إلى أن فنون البلاغة في القرآن من مقتضيات نظمه فلا يمكن التصرف فيها كما لا يمكن التصرف في حروف القرآن وألفاظه وجمله بخلاف ذلك في كلام العرب .

# الفصل الثالث

## إعجاز القرآن البلاغي لغير العرب

إعجاز القرآن ببلاغته للعرب الأول أهل اللسن وأرباب الفصاحة ـ ومن أتى بعدهم ممن دبّ اللحن في كلامهم أمر لا يكاد الشك يتطرق إليه ، وقد تحدّاهم القرآن غير مرّة ، فطلب منهم أن يأتوا بمثله أو بعشر سور أو بسورة واحدة من مثله فعجزوا ، وكان ذلك التحدِّي تأكيداً لعجزهم ومَن يجيء مِن بعدهم إلى أن تقوم الساعة ، وصدق الله حيث يقول : « وإن كنتم في ريبٍ ممَّا نزَّلنا على عبدنا فأتوا بسورةٍ من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين . فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودُها الناسُ والحجارةُ أُعِدَّت للكافرين »[1] .

لكن ما يتطرق إليه السؤال هو : موقف غير العرب من بلاغة القرآن فيقال مثلاً : كيف يتجلى إعجاز القرآن ببلاغته لغير العرب ؟ وهل يُدرك هؤلاء الذين لا يعرفون العربية ولا يميزون بين أساليبها ووجوه استعمالاتها أسرار تلك البلاغة ؟

ولعل ذلك كان من أسباب محاولات الباحثين في الإعجاز القرآني اكتشاف وجوه أخرى للإعجاز غير الإعجاز البلاغي تكون ميسورة الإدراك لغير العرب كالإعجاز العلمي والإعجاز العددي والإعجاز القصصي وغيرها .

ولا يفهم من هذا أن الباحثين المتقدمين لم يشيروا إلى هذه المسألة ، بل كانت لهم إشارات وتلميحات حولها ، فالخطابي بعد أن حدد إعجاز القرآن في

---

(١) سورة البقرة : ٢٣ ـ ٢٤

نظمه وشرح الأسس التي يقوم عليها ذلك النظم أضاف إلى ذلك الآثار الروحية التي يحدثها القرآن في السامعين والقارئين عرباً كانوا أم غير عرب وذلك في قوله : « قلت في إعجاز القرآن وجهاً آخر ذهب عنه الناس ، فلا يكاد يعرفه إلا الشاذ من آحادهم ، وذلك صنيعه بالقلوب وتأثيره في النفوس ، فإنك لا تسمع كلاماً غير القرآن منظوماً ولا منثوراً إذا قرع السمع خلص له إلى القلب من اللذة والحلاوة في حال ومن الروعة والمهابة في أخرى ما يخلص منه إليه ، تستبشر به النفوس ، وتنشرح له الصدور ، حتى إذا أخذت حظها منه عادت مرتاعة قد عراها الوجيب والقلق ، وتغشاها الخوف والفرق ، تقشعر منه الجلود ، وتنزعج له القلوب ، يحول بين النفس وبين مضمراتها وعقائدها الراسخة فيها ، فكم من عدو للرسول ﷺ من رجال العرب وفتاكها أقبلوا يريدون اغتياله وقتله ، فسمعوا آيات من القرآن فلم يلبثوا حين وقعت في مسامعهم أن يتحوّلوا عن رأيهم الأول ، وأن يركنوا إلى مسالمته فيدخلوا في دينه ، وصارت عداوتهم موالاة وكفرهم إيماناً »(١) كما تابع الخطابي في القول بذلك القاضي عياض والسيوطي (٢) .

وإذا كان « الخطابي » قد جعل إعجاز القرآن أولاً في نظمه وثانياً في هذه الآثار الروحية كما رأينا ، فإن « محمد فريد وجدي » يرى أن إعجاز القرآن في هذه الآثار فقط التي يخضع لها العربي وغير العربي - وأنه لا يمكن أن يكون للبلاغة وحدها كل هذا التأثير ، لأن حدودها غير مضبوطة وقواعدها غير مقيدة فتأثيرها على النفس محدود (٣) .

والباحث يرى أن ما نراه من آثار على من يقرأون القرآن أو يستمعون له من عرب وغير عرب كشيء ناشىء عن نظمه البديع الذي يتمثل في هذا الإيقاع الجميل - ذلك الإيقاع الذي يتجدد من آن لآن تجدُّداً يجعل السامع دائماً متجدِّد

---

(١) الخطابي : بيان إعجاز القرآن ص : ٦٤ .

(٢) القاضي عياض : الشفاء ١/ ٧٧٧ والسيوطي : معترك الأقران ١/ ٢٤٣ وما بعدها .

(٣) محمد فريد وجدي - دائرة معارف القرن العشرين ٧/ ٦٧٧ ط ثانية .

النشاط على نحو ما يصفه الدكتور « محمد عبدالله دراز » بقوله : « أوّل ما يفجؤك ـ أول ما يلاقيك ويسترعي انتباهك من أسلوب القرآن الكريم خاصية تأليفه الصوتي في شكله وجوهره ـ دع القارىء المجوِّد يقرأ القرآن يرتله حق ترتيله نازلاً بنفسه على هوى القرآن وليس نازلاً بالقرآن على هوى نفسه ، ثم انتبذ منه مكاناً قصياً لا تسمع فيه جرس حروفه ولكن تسمع حركاتها وسكناتها ومداتها وغناتها ، واتصالاتها وسكتاتها ثم ألق سمعك إلى هذه المجموعة الصوتية وقد جردت تجريداً ، وأرسلت ساذجية في الهواء فستجد نفسك منها بإزاء لحن غريب عجيب لا تجده في كلام آخر لو جرد هذا التجريد وجوِّد ذلك التجويد ، ستجد اتساقاً وائتلافاً يسترعي من سمعك ما تسترعيه الموسيقى والشعر ، على أنه ليس بأنغام الموسيقى ولا بأوزان الشعر ، وستجد شيئاً آخر لا تجده في الموسيقى ولا في الشعر ، ذلك أنك تسمع القصيدة من الشعر فإذا هي تتشابه أهواؤها وتذهب مذهباً متقارباً ، فلا يلبث سمعك أن يمجّها ، وطبعك أن يملها إذا أعيدت وكررت عليك بتوقيع واحد ، بينما أنت من القرآن أبداً في لحن متنوع متجدِّد ، تتنقَّل فيه بين أسباب وأوتاد وفواصل على أوضاع مختلفة يأخذ منها كل وترٍ من أوتار قلبك بنصيب سواء فلا يعروك منه على كثرة ترداده ملالة ولا سأم ، بل لا تفتأ تطلب منه المزيد ـ هذا الجمال الإيقاعي في لغة القرآن لا يخفى على أحد ممن يسمع القرآن حتى الذين لا يعرفون لغة العرب ، فكيف يخفى على العرب أنفسهم ؟ »[1] .

فالذي أراه أن هذه الآثار الروحية التي تبدو على من يقرأون القرآن أو يستمعون له من العرب والعجم ناشئة عن روعة تأليفه واتساق نظمه ، ولو أن الخطابي جعلها كذلك ناشئة عن حسن النظم ولم يجعلها وجهاً مستقلاً لكان أكثر صواباً .

---

(١) د . محمد عبد الله دراز ـ النبأ العظيم ص : ٩٤ ، ٩٥ .

# درس البلاغة لغير العرب
# يؤكد إعجاز القرآن لهم ببلاغته

**كنت أسمع من حين لآخر عن أناس يعتنقون الإسلام ويهجرون الشرك لسماعهم بعض آيات من القرآن الكريم فتأخذني الدهشة لذلك ، حتى قدَّر الله لي أن أزاول تدريس البلاغة وغيرها من علوم اللغة والدين للطلاب الوافدين بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية الذين يُعَدُّ لهم برنامج خاص لدراسة اللغة العربية وفهم أساليبها حتى يتمكنوا من متابعة دراساتهم في كليات الجامعة [1] فتأكد لي صدق ما سمعته وقرأته ووقفت بنفسي على تأثير القرآن على غير العرب تأثيره على العرب [2] .**

---

(١) ويقوم على تنفيذ هذا البرنامج : مركز تعليم اللغة العربية التابع للجامعة .

(٢) يقول العالم المحقق الشيخ « محمد عبد الخالق عضيمة » : « القرآن الكريم معجز بنظم أسلوبه وبجرس ألفاظه ، وأصوات كلماته ، أما بلاغة النظم في القرآن فيتعرَّفها أصحاب السليقة العربية كما تعرَّفها الوليد بن المغيرة المخزومي : فقد روي أن الوليد قال لبني مخزوم : والله لقد سمعت من محمد آنفاً كلاماً ما هو من كلام الإنس ، ولا من كلام الجن ، إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغرق ، وإنه يعلو ولا يُعلى عليه » أما إعجاز جَرْس ألفاظه وأصوات كلماته فيُحس بها من له أذن موسيقية ولو كان أعجمياً لا يعرف اللغة العربية .

في عصرنا ، وفي أيامنا هذه فتاة أمريكية مسيحية ثقافتها لا تتجاوز دراسة الموسيقى سمعت تلاوة القرآن الكريم من الإذاعات المختلفة ، فشدَّ انتباهها جَرْس ألفاظ القرآن وأصواتُ كلماته ، ودفعها ذلك إلى أن تتعلم اللغة العربية حتى تستطيع قراءة القرآن ، تعلمت اللغة العربية واستطاعت أن تقرأ القرآن ، ولكنها لم تقنع بذلك ، وحضرت إلى القاهرة لتتعلم قراءة القرآن مع التجويد على يد شيخ من شيوخ القراءة ، وهو الشيخ عامر ـ وقد تركتها في القاهرة ، وأخبرني الشيخ عامر بأن فتاة أمريكية أخرى قد انضمت اليها .

وفيما قرأت : ضابط كندي من جنود الحلفاء في الحرب العالمية الثانية تأثر بقراءة الشيخ : « محمد =

وقد بدأت درس البلاغة لمجموعة من هؤلاء الطلاب الذين كان عهدهم بالعربية حديثاً غير بعيد ، كما كان منهم من دخل الإسلام قريباً ، واعتمدت في ذلك على آيات الذكر الحكيم أتلوها لهم مجوَّدة بصوت حسن وأطلب منهم تلاوتها ، ثم أوضح معاني ألفاظها ومعناها الإجمالي ، وبعد ذلك أرشدهم إلى أسرار بلاغتها بالطريقة الأدبية التي تعتمد على الذوق والحس - ووجدت الطلاب يتقدمون في الفهم ويتعشقون القرآن يوماً بعد يوم ، بل أخذوا يطلبون المزيد ، فأغراني ذلك بجعل آيات الذكر الحكيم مادة لدروس النحو والقراءة والتعبير والنصوص - أمثلةً ودروساً ، وقد أكدت لي الوثبة الهائلة التي وثبها هؤلاء الطلاب في فهم لغة القرآن وتحصيل جانب كبير منها تجلى أثره في حديثهم وكتابتهم في أسابيع محدودة أن إعجاز القرآن حقاً في لغته وبلاغته ، وأن أفضل مادةٍ يعتمد عليها الدرس اللغوي والبلاغي لغير العرب هو القرآن الكريم .

وإذا كانت البلاغة تعد بين دارسي العربية الناطقين بها من العلوم الصعبة التي يتهيبها الطلاب فإنها بفضل الله تُعَدُّ في مقدِّمة العلوم التي يتعشقها الطلاب الوافدون وتزيدهم حباً للعربية واهتماماً بها ، وأقدم فيما يلي بعضاً من هذه الدروس التي ألقيت على طلاب المركز ، وكان منهجي فيها كالآتي :

١ - لفت الطلاب الى منزلة الدرس من اللغة والبلاغة بمقدمة موجزة معتمدة على الشواهد والأمثلة .

٢ - استمداد معظم النصوص من آيات القرآن الكريم ، مع تحديد سُوَرِها ومكانها في تلك السور ، وتقديمها للطلاب مجوَّدةً بصوتٍ حسن ، وقد حقق ذلك الخير الكثير إذ حفظ الطلاب عشرات من الآيات بدون مشقة في حفظها .

---

= رفعت » رحمه الله فحضر إلى مجلسه ، واستمع لقراءته ، ثم أعلن إسلامه ، إنما تأثر هؤلاء بجَرْس ألفاظ القرآن ، وأصوات كلماته من غير فقهٍ لمعاني الألفاظ القرآنية ، ولا وقوف على أسرار النظم في القرآن الكريم » .

مجلة كلية اللغة العربية بالرياض : العدد التاسع ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩م .

٣ ـ تفسير ما تشتمل عليه الآيات من ألفاظ ، وتوضيح بعض المشتقات ، وموقع بعضها من الإعراب .

٤ ـ الوقوف على اللون البلاغي الذي يبرز في الآية عن طريق الحسّ والذوق وبمشاركةٍ من الطلاب وبيان آثاره البلاغية ، مع الإشارة بإيجاز إلى ما تتضمنه الآية من ألوان أخرى وأثرها في التركيب القرآني .

٥ ـ الموازنة بين بعض الأساليب العربية وما يتشابه معها في المعنى من آي الذكر الحكيم للوقوف على سمو النظم القرآني .

ولست أدعي الإبتكار أو الإبتداع لهذا المنهج في دراسة البلاغة ، فإنه منهج قديم قِدم البحث في هذا العلم وقد طبقه : عبد القاهر الجرجاني ـ من المتقدمين وضياء الدين بن الأثير ويحيى العلوي والسيوطي من المتأخرين ولم يكن مني إلا أن حاولت تيسيره ليحقق للدرس البلاغي هدفه الأصيل وآمل أن يقف القارىء على النقاط السابقة في دروس : التقديم والتأخير ، والتشبيه والتعريض ، والطباق .

ومن الله نستمد العون والتوفيق .

# التقديم والتأخير

لكل شيء في الوجود نظام معين يتم به حسنه ويؤدي به غرضه ـ فالكتاب الجيد الصورة : ما نظمت صفحاته ورتبت معلوماته ، ووضع كل شيء فيه في مكانه المناسب ـ ولو حدث أن تأخر الغلاف عن موضعه أو تقدمت بعض الصفحات عن مكانها الأساسي بدون سبب مقبول لقبحت صورة الكتاب وقل حسنه .

وينطبق ذلك تماماً على الكلام الذي نكتبه ونتحدث به فله ترتيب خاص يتمثل في وضع كل لفظة منه حيث ينبغي أن توضع ليؤدي المعنى الذي نقصده والهدف الذي نريده وتقديم بعض الألفاظ عن موضعها أو تأخيرها عن موطنها لغير سبب يقلل من جمال الكلام ويفسد معناه ـ فأنت تقول : حضرنا من بلادنا في المواعيد المحددة ونحن فرحون ببداية العام الدراسي الجديد ـ فنجد الكلام واضحاً وجميلاً لأن كل كلمة فيه قد وضعت في مكانها المحدد .

بينما يقول زميل آخر : ببداية العام الدراسي الجديد من بلادنا في المواعيد المحددة ونحن فرحون حضرنا ـ فنجد الكلام غير واضح وغير جميل ويحتاج منا لوقت طويل حتى نفهم المراد منه ـ وإن كانت ألفاظه نفس ألفاظ التركيب السابق ـ غير أن السابق كان واضحاً مقبولاً مفهوماً كما عرفت لتنظيم ألفاظه وترتيب كلماته بوضع كل منها في مكانها الخاص بها ـ بينما فقد الأسلوب الثاني عنصر التنظيم والترتيب فظهر مفكك البناء ـ خفي المعنى .

وهذا التقديم والتأخير الذي شوّه صورة الكلام ، وقلّل من حسنه ، وأفسد

معناه ـ كما رأيت ـ هو الذي يحدث ارتجالاً أي بدون سبب ولغير هدف ـ وهو كما رأيت يجعل الأسلوب معيباً والكلام غير مقبول .

وهناك تقديم وتأخير في الكلام يزيد حسنه ، ويرفع قدره ويسمو بمعناه ـ ويجعله في درجة عالية من البلاغة ـ فمثلاً : المبتدأ مكانه أول الكلام ، والخبر يأتي بعده مثل : محمدٌ فاهمٌ وقد يتقدم الخبر على المبتدأ لسبب بلاغي سنعرفه بعد فيقال : فاهمٌ محمدٌ والجملة الفعلية ترتيبها كالآتي : الفعل أولاً ، والفاعل ثانياً ، والمفعول ثالثاً ـ وبعد ذلكَ تكون المتممات للجملة كالحال والتمييز والظرف والجار والمجرور وغيرها . فيقال : ـ أخذ عليٌ الجائزةَ اليوم مسرورا ـ فقد وضعت كل كلمة في موطنها الأصلي .

وقد يتقدم كل من الفاعل والمفعول والظرف والحال عن موطنه الأصلي لسبب بلاغي فيقال : عليٌ أخذ الجائزة اليومَ مسروراً ، بتقديم الفاعل .

و : الجائزة أخذها عليٌ اليوم مسروراً . بتقديم المفعول .

و : اليوم أخذ عليٌ الجائزة . بتقديم الظرف .

و : مسروراً أخذ عليٌ الجائزة اليوم ـ بتقديم الحال .

ودرس البلاغة يهتم ببحث هذه الأسباب ـ والنتائج التي تترتب عليها .

وكلما كانت الأسباب التي تقدمت لها الألفاظ أو تأخرت مقبولة ومعقولة كان الكلام حسناً ومقبولاً .

وبدراستنا للأساليب العربية : نظمها ونثرها ، التقينا بنماذج كان للتقديم فيها سبب مقبول فكانت حسنة ، وبنماذج أخرى كان التقديم فيها لغير سبب ، وبنماذج ثالثة كان التقديم فيها لسبب غير مقبول ـ فكانا معيبين وغير مقبولين .

لكن أسلوباً واحداً حدث التقديم والتأخير فيه لأسباب مقبولة فكان آية في البلاغة وقمةً في الحسن والجمال وهو الأسلوب القرآني الذي اختيرت ألفاظه ،

وأُحكِم ترتيبها ، وأجيد تنسيقها وتنظيمُها بحيث لم يتمكن ولن يتمكن فرد من البشر مهما بلغ علمه أن يزيد عليه كلمة أو يحذف منه لفظة ، بل أن يقدم كلمة أو يؤخر لفظة عن موطنها وصدق الله حيث يقول : « إنا نحن نزّلنا الذِكر وإنا له لحافظون » [1] « كتاب أُحكمت آياته ثم فُصِّلت من لدن حكيم خبير » [2] .

وحتى يتأكد لك صحة هذا الكلام بالدليل العملي ، فإنا نقدم لك بعضاً من الآيات القرآنية لتلمس روعة التقديم فيها وسر إعجازه .

## من صُوَرِ التقديم في القرآن الكريم

١ـ التقديم للتبرك كقوله تعالى : « شهِد الله أنه لا إله إلا هو والملائكةُ وأولوا العلم قائماً بالقِسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم » [3] . فقد تقدم لفظ الجلالة على : الملائكة وأهل العلم للتبرك به أولاً .

٢ ـ التقديم للتعظيم كقوله تعالى : « إن الله وملائكته يُصَلُّون على النبي يأيها الذين آمنوا صلُّوا عليه وسلِّموا تسليماً » [4] . فقد ذُكر لفظ الجلالة أولاً تعظيماً له .

٣ ـ التقديم للتشريف وارتفاع المنزلة كقوله تعالى : «والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسانٍ رضي الله عنهم ورضوا عنه وأعدّ لهم جنّاتٍ تجري تحتها الأنهارُ خالدين فيها أبداً ذلك الفوز العظيم » [5] .

فذكر الله المهاجرين قبل الأنصار لبيان علو درجة المهاجرين الذين كانوا أكثر جهاداً في سبيل الله بأنفسهم وأموالهم .

---

(١) سورة الحجر : ٩ .

(٢) سورة هود : ١

(٣) سورة آل عمران : ١٨

(٤) سورة الأحزاب : ٥٦ .

(٥) سورة التوبة : ١٠٠ .

ومن التقديم للتشريف أيضاً قوله تعالى : « إن المسلمين والمسلماتِ والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصادقين والصادقات والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدِّقين والمتصدقاتِ والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيراً والذاكراتِ أعدَّ الله لهم مغفرةً وأجراً عظيماً » (١) .

فقد ذكر الرجال قبل النساء في كل ما سبق لما يقوم به الرجل من أعمال في السلم والحرب لا تستطيع المرأة لضعفها أن تقوم بها مما يجعله أحق بالتقديم منها .

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى في سورة الأحزاب : « وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى بن مريم وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً » (٢) .

فالميثاق الغليظ معناه : العهد القوي ـ وقد خصَّ الله هؤلاء الرسل الخمسة بالذكر بعد لفظ « النبيين » لأنهم أولو العزم الذين تحملوا من الأذى والمشاق أكثر مما تحمله غيرهم . وقدَّم محمداًﷺ على الأربعة الباقين عليهم الصلاة والسلام تعبيراً عن منزلته السامية ومرتبته العالية فهو سيِّد الأنبياء وأشرف رُسُلِ اللهِ أجمعين .

٤ ـ التقديم للسبق ـ أي لأن المقدم أسبق في الوجود ـ كتقديم الأب على الابن والأستاذ على التلميذ ، ومن ذلك قوله تعالى : « يأيُّها النبيُّ قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يُدنين عليهنَّ من جلابيبهن ذلك أدنى أن يُعرَفنَ فلا يُؤذَيْن وكان الله غفوراً رحيماً» (٣) . فتقديم الأزواج على البنات لسبقهن للبنات ، وتقديمهما على نساء المؤمنين ، لأن أزواجه وبناته عليه الصلاة والسلام قدوة لنساء المسلمين فينبغي أن تتحقق فيهن القدوة أولاً .

(١) سورة الأحزاب : ٣٥ .
(٢) سورة الأحزاب : ٧ .
(٣) سورة الأحزاب : ٥٩ .

وقد يكون السبق من ناحية الإنزال أي أن المقدم نزل أولاً من عند الله وتلاه ما بعده كقوله تعالى : « إن هذا لفي الصحف الأولى . صُحُفِ إبراهيم وموسى »[1] وقوله : « . . . وأنزل التوراةَ والإنجيل من قبلُ هدى للناس وأنزل الفرقان . . . »[2] فصحف إبراهيم نزلت قبل صحف موسى - والتوراة نزلت قبل الإنجيل - وبعدهما نزل القرآن على رسول الله محمد عليهم جميعاً أفضل الصلاة والسلام .

وقد يكون السبق من ناحية الوجوب والتكليف - أي أن المقدم يجب البدء به بتكليف من الله تعالى كقوله سبحانه : « إن الصَّفا والمروةَ من شعائر الله . . . »[3] فتقديم الصَّفا على المروة يفيد البدء منها في السعي - ولهذا قال ﷺ : « نبدأ بما بدأ الله به » .

٥ - التقديم بالذات - أي لأن اللفظ المقدّم يستحق التقديم لذاته ، كتقديم الواحد على الإثنين ، والثلاثة على الأربعة وغيرها كقوله تعالى : « ما يكون من نجوَى ثلاثة إلا هو رابعُهم ولا خمسةٍ إلا هو سادسُهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثرَ إلا هو معهم أينما كانوا ثمَّ يُنبِّئُهم بما عمِلوا يوم القيامة إن الله بكلِّ شيءٍ عليم »[4] .

٦ - التقديم للسببية - بمعنى أن المقدَّم سبب في المؤخر فيُقدَّم عليه كقوله تعالى : « إيَّاك نعبدُ وإيَّاك نستعين »[5] فقدمت العبادة على الإستعانة لأن العبادة هي الأصل والأساس وينبغي تحقيقها أولاً فهي سبب في الإستعانة . - كما أن تأخير لفظ « نستعين » يحافظ على النغم القرآني ويجعل الآية منسجمة مع ما قبلها

---

(١) سورة الأعلى : ١٩ .
(٢) سورة آل عمران : ٣ .
(٣) سورة البقرة : ١٥٨ .
(٤) سورة المجادلة : ٧ .
(٥) سورة الفاتحة : ٥ .

وما بعدها فيسهل حفظها وترديدها ـ ومن التقديم للسببية أيضاً قوله تعالى : « قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم إن الله خبير بما يصنعون »[1] فالغض معناه : كف النظر ومنعه عن كل ما حرم الله ـ وأزكى أي : أفضل وأطهر وقد تقدم الأمر بغض البصر على الأمر بحفظ الفروج ، لأن غض البصر سبب في حفظ الفروج وطهارتها ، وارتكاب المنكر والوقوع في الفاحشة والعياذ بالله يبدأ بنظرة آثمة كما قال ﷺ : « النظرة سهم مسموم من سهام إبليس فمن تركها رغبة عنها أورثه الله ايماناً يجد حلاوته في قلبه » .

ومن التقديم للسببية أيضاً قوله تعالى: « وأنزلنا من السماءِ ماءً طهوراً لنُحييَ به بلدةً ميتاً ونُسقيه مما خلقنا أنعاماً وأناسيَّ كثيراً »[2] فالطهور معناه : الشديد الطهارة ، وهي من صيغ المبالغة على وزن : فَعُول والأنعام تطلق على الإبل والبقر والغنم وغيرها ـ وأناسيٌّ : مفرده : إنسان .

وقوله سبحانه : « لنحييَ به بلدة ميتاً » تصوير بياني رائع لقيمة الماء الذي لا حياة لمخلوق إلا به ـ فهو سبحانه يصور الصحارى المقفرة التي لا زرع فيها ولا ماء ولا إنسان ولا حيوان ثم ينزل عليها الماء من عند الله فتكثر فيها الأشجار وتنبت الزروع التي تحول الصحراء إلى جنة خضراء يصور الله ذلك بالميت الذي أعيدت اليه الحياة مرة ثانية ـ وقدَّم الله حياة البلد بالزرع والخضرة على حياة الأنعام لأنها سبب في حياة الأنعام حيث منها تأكل وتتغذى وقدَّم حياة الأنعام على حياة الناس ـ لأن الناس يعتمدون على الأنعام كثيراً في حياتهم فيشربون لبنها ويلبسون أصوافها ويأكلون لحمها ويستخدمونها في الحرث والسقي وغير ذلك فكانت سبباً في حياتهم .

٧ ـ الكثرة والقلة: ومن التقديم للكثرة والتأخير للقلة قوله تعالى: «ثم أورثنا

---

(١) سورة النور : ٢٩ .

(٢) سورة الفرقان : ٤٨ ، ٤٩ .

الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصِدٌ ومنهم سابقٌ بالخيرات بإذن الله ذلك هو الفضل الكبير»[1].

فقد أفادت الآية الكريمة أن الله تعالى أكرم الذين اصطفاهم واختارهم من عباده بحفظ كتابه - والذين يحفظون الكتاب الكريم ثلاثة أصناف : صنف كثرت سيئاته وهم كثيرون فذكروا أولاً « فمنهم ظالمٌ لنفسه » وصِنف خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً وهم أقل ممن سبقهم فذكروا ثانياً « ومنهم مقتصِدٌ » وصنفٌ غلبت حسناته سيئاته وهم أقل الثلاثة عدداً « ومنهم سابقٌ بالخيرات » فذكِرُوا ثالثاً ، وقول الله : « بإذن الله » يفيد أن الوصول إلى هذه المرتبة صعب المنال ، وأنه بتيسير الله تعالى وتوفيقه - وقد روي أن عمر رضي الله عنه قال وهو على المنبر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « سابقنا سابق ومقتصدنا ناج وظالمنا مغفورٌ له » .

٨ - القرب والبعد: وقد يُراعى التقديم وترتيب الألفاظ للقرب والبعد - أي يُقدَّم القريب على البعيد كقوله تعالى : ﴿وأذِّن في الناس بالحجِّ يأتوك رِجالاً وعلى كل ضامرٍ يأتينَ من كل فجٍّ عميق﴾[2]. أذِّنْ : فعل أمر يراد به الوجوب - وماضيه : أذَّن ومضارعه: يُؤذِّن - ويأتوك : فعل مضارع مجزوم بحذف النون في جواب الأمر ورجالاً : حال أي : مُشاةً ومفرده : راجل- وعلى كل ضامر - أي : راكبين والضامر: البعير الضعيف الذي ضمُر من كثرة المشي وطول السفر. من كل فجٍّ عميق: أي من كل مكان بعيد - وجمع فجٍّ : فجاج . وحيث جرت العادة أن يأتي المشاةُ من زوَّار بيت الله من الأماكن القريبة والراكبون من الأماكن البعيدة قدَّم الله المشاة «رجالاً» لقربهم على الرُّكبان «وعلى كلِّ ضامر» لبعدهم.

---

(١) سورة فاطر : ٣٢ .

(٢) سورة الحج : ٢٧ .

وقيل : إن تقديم « المشاة » لعظيم ثوابهم وارتفاع منزلتهم لكثرة متاعبهم وتحمُّلهم ، ولذا قال ابن عباس رضي الله عنهما : وددت لو حججت راجلاً ـ فإن الله قدَّم الرجَّالة على الركبان في القرآن ، فدلَّ ذلك على أنه فهم من التقديم في الآية الفضل فالمعنيان محتملان في الآية [1] .

٩ ـ الخِفة والثقل: وقد يُراعى في ترتيب الألفاظ في القرآن الكريم المحافظة على النسق القرآني والإيقاع الصوتي الذي يجعل القرآن مؤثراً في الأعجمي تأثيره في العربي ومن ذلك قوله تعالى: «فأرسَلْنا عليهمُ الطوفان والجرادَ والقُمَّل والضَّفادع والدَّم آياتٍ مفَصَّلاتٍ فاستكبروا وكانوا قوماً مجرمين»[2] فقد ذكر الله هذه الألوان الخمسة من العذاب على الترتيب السابق، ولعلك تقول: ما سرُّ مجيئها على هذا الترتيب؟ أو أي شيء يحدث لو غيَّرنا في ترتيبها وقرأناها على خلاف ترتيب القرآن لها؟

ونقول لك : إن الإنسجام الصوتي والنغم القرآني لا يتحقق عند مخالفة هذا الترتيب ، وسأتلو الآية عليك مرتين : مرة على ترتيب القرآن لها وأخرى على خلاف هذا الترتيب ، وسأتركك تميز بين الطريقتين بحسِّك وذوقك ! قطعاً اقتنعت بروعة الترتيب القرآني وأخذتك آثاره ـ وقد تسأل مرة ثانية : ما الذي فعله القرآن في ترتيبه لهذه الألفاظ الخمسة حتى كان لها ذلك الوقع المؤثر ؟

ونجيبك بأن الألفاظ الخمسة بينها لفظان ثقيلان في النطق وهما : القُمَّل والضَّفادع ـ فجاء بهما القرآن بين ما هو خفيف منها : الطُّوفان والجراد قبلهما والدَّم بعدهما فاختفى ثقلهما ـ وخرجت الألفاظ الخمسة بهذا الترتيب القرآني في صورة جميلة وفي تركيب سَهْل مألوف .

---

(١) الطراز : يحيى العلوي ـ ج ٢ ص : ٥٦ وما بعدها .

(٢) سورة الأعراف : ١٣٣ .

١٠ ـ التخصيص : ومن دواعي تقديم بعض الألفاظ التخصيص ـ ومعناه : التحديد والقصر ـ تقول لأخيك : أمرتك بهذا الشيء ، وبهذا الشيء أمرتك ـ فبين العبارتين اختلاف في الشكل ترتب عليه اختلاف في المعنى ـ أما اختلافهما في الشكل فمن حيث تأخّر الجار والمجرور في العبارة الأولى وتقدمه في العبارة الثانية وقد أفاد هذا التقديم تخصيص الأمر بالمقدَّم وقصره عليه ـ ومن ذلك قوله تعالى : « له ملك السموات والأرض يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير »[1] ـ فقد أفاد تقديم الجار والمجرور في كلا الموضعين في الآية : أن كل من في السموات والأرض وما فيهما لله وحده وأنه وحده القادر على كل شيء ولا يشاركه في ذلك أحد .

وقوله تعالى : « إليه مرجعكم جميعاً » أي إن الناس جميعهم من لدن آدم عليه السلام إلى قيام الساعة يرجعون إليه وحده .

وقوله أيضاً : « إن إلينا إيابهم ثم إن علينا حسابهم »[2] أي إن رجوع لتناقض أول العبارة مع آخرها ـ حيث أفاد تقديم الحال أنك حججت ماشياً بدون ركوب ـ وقولك في آخر العبارة: وراكباً يفيد أنك حججت راكباً ايضاً ـ وذلك تناقض والصواب ان يقال: حججت راكباً وماشياً ـ بمعنى أن بعض الطريق قطعته راكباً وبعضه قطعته ماشياً.

١١ ـ العناية والإهتمام: ومن اسباب التقديم: العناية والإهتمام ـ أي يكون اللفظ المقدم محل عناية السامعين وموطن اهتمامهم فيقدم لذلك كقولك: قتل الطفلُ الثعبانَ بتقديم الفاعل لغرابة وقوع القتل منه في العادة ولاهتمام الناس به فقُدم لذلك.

وتقول : قتل الذئبَ العاملُ ـ بتقديم المفعول وتأخير الفاعل لأن الذي يهتم به الناس ويشغل تفكيرهم هو وقوع القتل للذئب لينجوا من شره ويتخلصوا من

(١) سورة الحديد : ٢

(٢) سورة الغاشية : ٢٥ ، ٢٦ .

ذاه ـ أما حدوث قتله على يد عاملٍ أو غيره فليس مما يهتمون بمعرفته .

ومما حدث التقديم فيه للعناية والإهتمام في الأسلوب القرآني قوله تعالى : « ولا تقتلوا أولادكم من إملاقٍ نحن نرزقكم وإياهم . . . »[1] وقوله في آية أخرى: «ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم. .»[2] فمعنى الإملاق: الفقر ـ وخشية إملاق: أي خوفاً من الفقر. وقد يتوهم الناظر للمرة الأولى أن الآيتين تتحدثان عن معنىً واحد وأن في القرآن تكراراً لا فائدة منه.

ولكن بالتأمل الدقيق يتبين أن كلا من الآيتين تختص بجهة معينة ، وتتعلق بطائفة محددة من الناس ، مما يدل على أنهما مختلفتان تماماً ، وليس فيهما شيء من تكرار ، بل سيظهر لنا أنهما نموذج لبلاغة القرآن المعجزة ونظمه الدقيق .

فقوله تعالى في الآية الأولى : « من إملاق » أي من فقر دليل على أن المخاطبين فقراء حيث يقتلون أولادهم من فقر واقع يعيشون فيه وقوله في الآية الثانية : « خشية إملاق » أي خوفاً من الفقر دليل على أن المخاطبين ليسوا فقراء ، لأنهم يقتلون الأولاد خوفاً من الفقر المتوقع في المستقبل ، وليس لفقر حادث.

فاختلفت جهة الخطاب في الآيتين كما ترى ، حيث تخاطب الأولى الفقراء ، وتخاطب الثانية الأغنياء ، وكان من الضروري أن يترتب على هذا الاختلاف اختلاف في تركيب الآيتين ونظمهما .

وتمثل هذا الإختلاف في النظم بين الآيتين كما ترى في تقديم الوعد برزق المخاطبين في الآية الأولى على الوعد برزق أولادهم « نحن نرزقكم وإياهم » وتأخير الوعد برزق المخاطبين في الآية الثانية وتقديم الوعد برزق أولادهم « نحن نرزقهم وإياكم » لأن الخطاب في الآية الأولى للفقراء كما علمت فكان الوعد برزقهم أهم من الوعد برزق أولادهم ـ ولما كان الخطاب في الآية الثانية للأغنياء

---

(١) سورة الأنعام : ١٥١ .

(٢) سورة الإسراء : ٣١ .

كان الوعد برزق أولادهم أهم من الوعد برزقهم ـ لأن رزقهم حاصل وموجود ـ فاختلف نظم الآيتين لاختلاف جهة الخطاب بينهما .

١٢ ـ التناسب والانسجام: ومن دواعي التقديم والتأخير المحافظة على انسجام الأسلوب واستمراره على نسق متزن ـ ينشأ عنه إيقاع حسن يتأثر به كل من يسمعه ويتمثل هذا الإنسجام على أحسن وجوهه في أسلوب القرآن الكريم الذي يسمعه غير العرب فينجذبون اليه ويتأثرون به، وقد يكون سبباً لاعتناقهم الإسلام وهجرهم الشرك.

ومن أمثلة ذلك تقديم خبر كان على اسمها في قوله تعالى : « لم يلد ولم يُولَدْ ولم يكن له كفُواً أحدٌ » [١] فقد تأخر اسم كان وهو « أحد » لتنتهي آخر آية في السورة بحرف الدال المقلقل فتنسجم بذلك مع الآيتين السابقتين عليها ، ويكون للسورة كلها هذا الإيقاع المميَّز الذي يجعلها خفيفة على اللسان وسهلة على الآذان وميسَّرة الحفظ ، خصوصاً لغير العرب والأطفال والصبية من العرب .

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى في سورة النجم : « أم للإنسان ما تمنى . فلله الآخرة والأولى » [٢] ففي الآية الثانية تقديمان : تقديم الجار والمجرور لإفادة التخصيص ـ وتقديم الآخرة على الأولى لتختم الآية بالألف المقصورة ، فيتحقق الإنسجام والتناسب بينها وبين الآيات التي سبقتها والتي جاءت بعدها ـ مما يجعلها خفيفة على اللسان والأذن .

ومثل ذلك أيضاً قوله تعالى من قصة موسى عليه السلام مع فرعون في سورة طه : « فأوجس في نفسه خيفةً موسى . . . قالوا آمنا بربِّ هارون وموسى » [٣] فقد تأخر « موسى » في الآية الأولى وهو فاعل وتقدم عليه الجار والمجرور والمفعول

---

(١) سورة الإخلاص : ٤ .
(٢) سورة النجم : ٢٤ ، ٢٥ .
(٣) سورة طه من : ٦٧ ـ ٧٠ .

لأجله ـ كما تأخر في الآية الثانية ، ووقع بعد « هارون » وهو أفضل من هارون عليهما السلام ـ وذلك لأن مجموعة الآيات التي وردت ضمنها الآيتان السابقتان ختمت بالألف المقصورة ـ فكان تأخير « موسى » في الآيتين السابقتين ليتهيأ الإنسجام بينهما وبين الآيات المتقدمة والآيات التالية .

ولما كنا قد عرفنا أن أثر هذا الإنسجام القرآني يتمثل في جمال وقعه وعذوبة نغمه ولا سيما عند تلاوته من قارىء حسن الصوت مجوِّد القراءة فليس غريباً بعد ذلك أن نرى أفراداً غير عرب يأخذهم الخشوع والإطراق والبكاء بل يدخلون في الإسلام عند استماعهم لكلام الله ، وصدق الله العظيم : « ولو جعلناه قرآناً أعجمياً لقالوا لولا فُصِّلت آياته أأعجميٌّ وعربيٌّ قل هو للذين آمنوا هُدى وشفاءٌ والذين لا يؤمنون في آذانهم وقرٌ وهو عليهم عمى أولئك ينادون من مكان بعيد » (١) .

١٣ ـ التقرير : ومن دواعي التقديم : التقرير أي طلب الإقرار، ويظهر ذلك بوضوح في الإستفهام أحد أنواع الأسلوب الإنشائي .

أقول لأحد الطلاب : أكتبت الدرس الذي كلَّفتك به ؟

وأقول لطالب آخر : أأنت كتبت هذا الدرس ؟

فنجد أن بين السؤالين فرقاً من الناحية الشكلية ، وعلى ذلك يترتب عليه فرق آخر من ناحية المعنى والبلاغة .

أما الفرق بينهما من الناحية الشكلية فإن السؤال الأول بدأ بالفعل ، بينما تأخر الفعل في السؤال الثاني وكانت البداية بالإسم الذي كان فاعلاً وأما الفرق بينهما من ناحية المعنى والبلاغة فإن البدء بالفعل في السؤال الأول يفيد الجهل

---

(١) سورة فصلت : ٤٤ .

بحدوثه ، وطلب الإقرار من المخاطب بوقوعه أم عدم وقوعه . أما البدء بالإسم في السؤال الثاني فيفيد أن الفعل وهو الكتابة قد حدث بدون شك وبدليل الإشارة إليه ، والمطلوب من المخاطب أن يقر بوقوع الكتابة منه أو وقوعها من غيره .

ومن أوضح الشواهد القرآنية على هذا قوله تعالى من قصة إبراهيم عليه السلام : « قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم . قال بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون . . . » [1] .

فسؤالهم إبراهيم لم يكن عن تكسير الأصنام - لأن تكسير الأصنام ظاهر وموجود بدليل الإشارة إليه ، وإذاً كان غرضهم من السؤال أن يُقرَّ إبراهيم ويعترف لهم بأن الكسر وقع منه لا من غيره أما قول إبراهيم عليه السلام في الرد عليهم : « بل فعله كبيرهم هذا . . . » فإنه من التعريض بجهلهم وضعف عقولهم وكأنه يريد أن يقول لهم : كيف تعبدون ما لا يجيب إن سُئِل وتجعلونه شريكاً لمن له الخلق والأمر ؟

وبعد : فهذه نماذج من التقديم والتأخير ، ليست على وجه الحصر ، وإنما للإستشهاد بها على روعة نظم القرآن وعلو بلاغته وسموّه على كلام الناس وأساليبهم بهذا النظم المحكم وتلك البلاغة المعجزة التي تجلت في جميع سوره وآياته ، بل في وضع حروفه من ألفاظه ، وألفاظه من جمله ، وجمله من تراكيبه .

---

(١) سورة الأنبياء : ٦٢ ، ٦٣ .

# التشبيه

## معناه ـ أركانه ـ سر بلاغته ـ صوره

التشبيه وجه من وجوه البيان ، وفن من فنون البلاغة يوضح المعاني ويؤكدها ويقربها من الأذهان . وتستطيع أن تدرك قيمته الأدبية وأسراره البلاغية عندما يكون أمامك عبارتان تتحدثان عن معنى واحد ، إحداهما لم تقم على التشبيه ، بينما اعتمدت الثانية على التشبيه ـ فإنك من غير شك تجد الثانية أوجز من الأولى ، وأكثر منها بياناً وايضاحاً ، وأشد مبالغة في المعنى المراد ـ وتلك فوائد وأسرار ثلاثة لكل أسلوب من أساليب التشبيه ـ وهي : المبالغة والبيان والإيجاز فيصف إنسان شجاعة علي بقوله : علي يُصارع الأبطال ، ويُفزع الشجعان ، ولا يخاف أحداً .

بينما يقول عنه إنسان آخر : علي كالأسد في الشجاعة فترى أن العبارة الثانية أكثر دلالة على شجاعة محمد ، إذ قامت على التشبيه الذي جعلها موجزة ، وأكثر بياناً وإيضاحاً ، لأن علياً شبه بالأسد الذي هو مثل على الشجاعة .

كما يمكنك أن تحدد أركان التشبيه من العبارة السابقة : علي كالأسد في الشجاعة ـ مشبه وهو علي وأداة تشبيه وهي الكاف ومشبه به وهو الأسد ووجه شبه بين المشبه والمشبه به وهي : في الشجاعة .

وتعرف هذه الأمور الأربعة بأركان التشبيه وقد يحذف وجه الشبه للعلم به مثل : علي كالأسد كما قد تحذف أداة التشبيه لإدراك السامع لها مثل : علي أسد في الشجاعة . كما قد يحذف كل من الوجه والأداة مثل : محمد أسد ويعرف ذلك

بالتشبيه المحذوف الوجه والأداة ، وبعض علماء البلاغة يلقبه بالتشبيه البليغ ـ لما يكون فيه من المبالغة في المعنى المراد الناشئة عن وقـوع المشبـه به خبـراً عن المشبه ولما تحتاج اليه هذه الصورة من تأمل زائد في فهمها لحذف الوجه والأداة منها .

## من وجوه التشبيه

### التشبيه المحذوف الوجه والأداة

قال تعالى : « أُحلّ لكم ليلة الصيام الرفَثُ[1] إلى نسائكم هُن لباس لكم وأنتم لباس لهن . . » فقد شبه الله حفظ المرأة للرجل من الوقوع في الفاحشـة وصون الرجل للمرأة من الأذى والفساد بوقاية الثوب لجسم صاحبـه من أخطـار الحر وآلام البرد ـ وقد حذف من التشبيه الوجه والأداة وذكر المشبه والمشبه به .

وقال أيضاً : « وجعلنا الليل لباساً »[2] أي غطاء للكون وستراً له بظلامه وهدوئه كما يستر الثوب الجسم . وقد حذف الوجه والأداة ووقع المشبه به مفعولاً ثانياً لجعل .

ومن التشبيهات المحذوفة الوجه والأداة في كلام النبيﷺ قوله :

« من في الدنيا ضيف، ومـا في يده عارية ، والضيف مرتحـل ، والعـارية مُؤدَّاة » .

فقد شبه الرسولﷺ عدم خلود الإنسان في الحياة الدنيا ورحيله عنها إلى الدار الآخرة مهما طال عمره بالضيف الذي لا يلبث أن يرحل عن صاحبه مهمـا طالت مدة ضيافته ، كما شبه تجرد الإنسان عن أمواله وإدبارهـا عنـه بالفقـر أو بالموت بالشيء المستعار لمدة معلومة حيث لا بد أن يعود لصاحبه عنـد انتهـاء

---

(١) الرَّفث : كناية عن الجماع ـ سورة البقرة : الآية : ١٨٧ .
(٢) سورة النبأ ـ الآية : ١٠ .

المدة ، وليس هناك أحد يجهل الضيف أو يجهل العارية ـ ولذا كان هذا التشبيه النبوي لانتهاء الدنيا بمن فيها وما فيها غاية في الوضوح والبيان . ويقول الشاعر لبيد في هذا المعنى :

وما المال والأهلون إلا ودائع ولا بد يوماً أن تُرَدَّ الودائع

## التشبيه التمثيلي

هو نوع من التشبيه لا يكون وجه الشبه فيه شيئاً مفرداً بل يكون مكوناً من أجزاء ـ وهو من التشبيهات العالية لأن فيه دقة وفناً يحتاجان إلى تفكر وتأمل ـ من ذلك قوله تعالى : « والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعةٍ يحسَبُه الظمآن ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده فوفَّاه حسابه والله سريع الحساب»[1] فالشبه هو : صورة أعمال الكفار الفاسدة التي تجردت من الإيمان بالله ، والتي يظنون أنها تنفعهم عند الله وتنجيهم من عذابه ثم يلقوْن في الآخرة خلاف ما توقعوه بدخولهم جهنم .

والمشبه به هو : صورة إنسان يمشي في صحراء قاحلة وقت اشتداد الحر بقلبه العطش فيبحث عن الماء فلا يجده ، ثم يبصر على البعد خيالات في الأفق يظنها ماءً فيسرع السير إليها حتى إذا وصل لم يجد شيئاً ووجد الشبه بين المشبه والمشبه به هو: البداية الطيبة والنهاية السيئة.

ومثل هذا الوجه من الشعر قول كثيِّر عزة :

لقد اطمعتني بالوصال تبسُّماً وبعد رجائي أعرضت وتولَّت
كما أبرقت قوماً عطاشاً غمامةٌ فلما رجوها أقشعت اوتجلَّت[2]

---

(١) سورة النور : الآية : ٣٩ والسراب : ما يرى في الصحراء من ضوء الشمس وقت الظهيرة يسرب على وجه الأرض كأنه ماء يجري ـ والقيعة : بمعنى القاع أو جمع قاع وهو المنبسط المستوي من الأرض .
(٢) أبرقت : لمعت . غمامة : سحابة . أقشعت : مضت وانصرفت .

فالمشبه هو : حال الشاعر مع محبوبته وقد جعلته يطمع في رضائها عليه بابتسامتها له ثم أحزنته بإعراضها عنه وتركها له .

والمشبه به : حال قوم عطاش رأوا من بعيد سحابة فتوقعوا أنها تحمل ماءً لكنها ما تلبث أن تمضي إلى حالها فتتركهم في حزن وتعب بعد سرور وفرح .

ووجه الشبه هو أيضاً : البداية السارة والنهاية المحزنة ومن التشبيه التمثيلي أيضاً في القرآن الكريم قوله تعالى : « مَثَل الذين حُمِّلوا التوراة ثم لم يحْمِلوها كمَثَلِ الحمارِ يحمل أسفاراً بئسَ مَثَل القوم الذين كذَّبوا بآيات الله والله لا يهدي القوم الظالمين»[1].

فالمشبه في الآية الكريمة هو حال علماء اليهودِ الذين يحفظون التوراة ولا يعملون بها ولا ينفذون أحكامها فتكون مصيبتهم شديدة والمشبه به هو : صورة حمار يحمل فوق ظهره كتباً كثيرة وكبيرة مملوءة بالعلوم والمعارف ، لكنه لا يعرف حرفاً واحداً منها ، ولا يعود عليه إلا التعب والعناء والمشقة .

ووجه الشبه إذا هو : تحمل التعب في استصحاب الشيء مع الجهل به .

ومن التشبيه التمثيلي في كلام الرسول ﷺ قوله :« المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً » أخرجه البخاري ومسلم .

فالمشبه هو : المؤمنون في تماسكهم وترابطهم وغير ذلك من الأمور التي تزيدهم قوة وتكسبهم هيبة واحتراماً .

والمشبه به هو : هيئة البناء الذي تعد كل لبنة منه عاملاً من عوامل ثباته وصموده ، بحيث إذا سقطت لبنة واحدة منه فإن البناء كله يتعرض للسقوط عاجلاً أو آجلاً ـ ومن غير شك فإن تلك الصورة من الوضوح بحيث يدركها الناس جميعاً

---

(١) سورة الجمعة : الآية : ٥ . حُمِّلوا : أي حفظوا . لم يحمِلوها : أي لم يعملوا بأحكامها . الأسفار : الكتب الكبيرة ـ والمفرد : سِفْرٌ .

على اختلاف أجناسهم ولغاتهم . ووجه الشبه هو : الاتحاد قوة .

ومن ذلك أيضاً قوله ﷺ : « مثل المؤمنين في توادِّهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثَل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضوٌ تداعى له سائرُ الجسد بالسَّهرِ والحُمَّى »[1] . أخرجه البخاري ومسلم .

فالمشبه هو : صورة المجتمع الإسلامي الواحد الذي تسوده كل الصفات الطيبة التي يدعو اليها الإسلام من الحب والتعاون والتراحم والتعاطف وغيرها بحيث لا يهدأ بال المسلم في أي مكان من العالم عندما يشعر أن أخاً في الإسلام له ينزل به مكروه أو يحل به شر - والمشبه به كذلك صورة معلومة لكل إنسان على ظهر هذه الأرض - وهي صورة الجسم الذي يصاب كله بالمرض، ويشمل الألم على أعضائه عندما ينزل ضرر بأصغر عضو منه.

ووجه الشبه إذاً هو : تأثر الكل بألم البعض .

وترى أن التشبيه في هذا الحديث والذي قبله قد رسم صورة واضحة للمجتمع الإسلامي القوي المتكامل الذي يعيش المسلمون جميعاً فيه أسرةً واحدةً ، فلا يجرؤ عدو مهما بلغت قوته على أن ينال منه شيئاً ، وقد تحقق وجود هذا المجتمع الإسلامي الواحد في أزمنة كثيرة من تاريخ الأمة الإسلامية فكان هذا المجتمع الإسلامي أقوى قوة على وجه الأرض .

ومن التشبيه التمثيلي كذلك في أقواله ﷺ قوله : « إنما مَثَلي ومَثَلُ الأنبياء من قبلي كمَثَلِ رجل بنى داراً فأجملها وحسَّنها إلا موضع لبنةٍ في زاوية من زواياها فجعل الناس يطوفون ويعجبون ويقولون : هلاَّ وضعت تلك اللبنة ! فأنا اللبنة ، وأنا خاتم النبيين .

فالمشبه هو : اكتمال الأديان بالإسلام الذي جاء به محمدٌ عليه الصلاة

---

(١) تداعى : اجتمع . سائر الجسد : بقية الأعضاء . الحُمَّى : المرض .

والسلام والمشبه به هو: صورة بناء شيد أعظم تشييد، لكن يقلل من روعة التشييد وفخامة البناء وجود جانب منه غير مكتمل - بحيث يدركه كل من يشاهد البناء.

ووجه الشبه إذاً هو: أن الجمال التام يكون بتمام التناسب وتوافر العناصر.

وقد وضح ذلك التشبيه تماماً علاقة الإسلام بالأديان السابقة وأنه جاء ليتممها بأحكامه وشرائعه التي تصلح لكل العصور والأجيال.

ومن التشبيه التمثيلي في الشعر العربي قول صالح بن عبد القدوس:

وإن من أدبته في الصِّبا كالعود يُسقى الماء في غرسه
حتى تراه مُورقاً ناضراً بعد الذي أبصرت من يبسِهِ[1]

فالمشبه هو: الصَّبي الذي يتعهده أبواه بالتأديب والتربية الحسنة منذ الطفولة المبكرة فيشب على مكارم الأخلاق وينشأ على الآداب العالية - لأن تربيته قد حدثت في وقتها المناسب.

والشبه به هو: الزرع الذي يعتني به صاحبه من أول لحظة بالرِّيِّ والحرث والعلاج فينمو ويخضر وتكثر أوراقه ويثمر ثمرات شهية.

ووجه الشبه إذاً بين المشبه والمشبه به: أن العلاج يؤتي ثمرته ويحقق هدفه إذا حدث في الوقت المناسب.

ومن ذلك أيضاً قول البوصيري:

والنفس كالطفل إن تهمله شب على حب الرضاع وإن تفطمه ينفطم

فالمشبه هو: صورة النفس تكون سبيلاً لسعادة صاحبها إن حال بينها وبين

---

(١) في غرسه: أي عند زرعه ووضعه في التربة - مورقاً: أي له ورق. ناضراً: أي أخضر جميلاً. يبسه: أي جفافه.

شهواتها ومنعها من ورود المهالك من المفاسد والرذائل، وتكون مصدراً لشقائه إن أطلقها المفاسِد وترتكب المنكراتِ والرذائل.

والمشبه به : صورة الطفل الذي يمنع من الإرضاع من أمه عند انتهاء مدة إرضاعه - ولو لم يمنع من الإرضاع لبقي متعلقاً بالإرضاع طول حياته .

ووجه الشبه هو : أن العادة يمكن تغييرها بالمجاهدة والمقاومة .

## التشبيه الضمني

التشبيهات السابقة قد ذكر فيها ما يوضح أنها تشبيه كذكر أداة التشبيه ، ووجود المشبه والمشبه به على وجه يشير إلى التشبيه .

ومن التشبيهات ما تفهم من سياق الكلام ومضمونه أي لا يصرح فيها بأداة التشبيه ولا يذكر كل من المشبه والمشبه به على وجه يدل على التشبيه ، وإنها تحتاج لفكر وطول نظر في الوقوف عليها لخفاء التشبيه فيها وعدم ذكر الأداة - لذا كانت من التشبيهات العالية ويعرف هذا اللون من التشبيه بالتشبيه الضمني .

فمن ذلك قول المتنبي :

من يهُن يسهل الهوان عليه ... ما لجرح بميت إيلام

فالمشبه هو : الإنسان الذي لم يعد يتألم لذلٍ ينزل به أو لهوانٍ يصيبه لأنه تعود على ذلك .

والمشبه به : الميت الذي لا يتألم لجرح فيه لأن الروح نزعت منه وقد فهمنا صورة المشابهة من سياق الكلام ومضمونه كما ترى ومثله قول أبي تمام :

وإذا أراد الله نشر فضيلةٍ ... طويت أتاح لها لسان حَسُودِ
لولا اشتعالُ النارِ فيما جاورت ... ما كان يُعرَفُ طيبُ عَرْفِ العُودِ

---

(١) طويت : أخفيت . أتاح : هيأ. العرف: الرائحة.

فالمشبه هو : المحاسن والفضائل التي يكون الحسد سبباً لنشرها بين الناس على الرغم من كونه حراماً ومنهياً عنه .

والمشبه به : النار التي تظهر رائحة العود وتنشرها على الرغم مما فيها من الأذى والإحراق .

ووجه الشبه هو : الهيئة الحاصلة من ترتب النفع على محاولة الضرر .

وقد فهمنا التشبيه من سياق الكلام ومضمونه كما ترى لذا كان التشبيه ضمنياً .

ومن ذلك أيضاً قول أبي تمام :

اصبر على مضض الحسود فإن صبرك قاتله
فالنار تأكل بعضها إن لم تجد ما تأكله[1]

فالمشبه هو : صبر المحسود وتحمله الذي يزيد الحاسد غيظاً وحقداً

والمشبه به هو : صورة النار المشتعلة التي يقل اشتعالها شيئاً فشيئاً حتى تتحول إلى رماد .

ووجه الشبه هو : أن دمار بعض الأشياء وفناءها قد يأتيها من داخلها وليس من شيء أجنبي عنها .

وقد فهم التشبيه من سياق الكلام ومضمونه .

فالتشبيه كما رأيت يوضح المعاني ويجعلها قريبة من العقول والأفهام ويجعل الأساليب حسنة وجميلة تقبل عليها النفوس وتصغي اليها الآذان ـ لذا كان من أهم دروس العربية وبلاغتها وفي النصوص السابقة أوضح شاهد على ذلك .

---

(١) المضض : وجع المصيبة .

# التعريض

أذَّن المؤذن لصلاة المغرب ـ ورأيت زميلاً لك ما يزال على فراشه متكاسلاً عن الصلاة ـ فأردت أن تلومه على ذلك وتنبهه إلى الإسراع لأداء الصلاة بدون أن يشتمل كلامك على إهانة ظاهرة له فقلت له : نادى المؤذن لصلاة المغرب .

وأنت في ذلك لا تعلِمه بحقيقة هذا الخبر لأنه معلوم له بغياب الشمس وسماع صوت المؤذن ، وإنما أنت تلومه على بقائه في فراشه وعدم إسراعه إلى الصلاة ـ وذلك بعبارة مهذبة لا يتألم لها ولا تستحي أنت من ذكرها .

ومثل ذلك قول الفقير المحتاج لمن يتوقع مساعدته ومعروفه من الأغنياء بغير طلب منه ـ ويمنعه الحياء من الجهر بالسؤال والتصريح بطلب المعونة ـ جئتك لأسلم عليك ـ أو لأطمئن على صحتك ـ فيفهم الرجل الغني طلبه ويمنحه المساعدة التي جاء أصلاً لطلبها ـ ويحفظ عليه بذلك حياءه ، ويصون له عزة نفسه وتعففه عن السؤال .

ومن ذلك أيضاً ما يروى أن امرأة ذهبت لقيس بن سعد تشكو إليه سوء حالها وشدة فقرها ، وحاجتها إلى المساعدة قائلة له : « أشكو اليك قلة الفأر في بيتي » .

ففهم قيس من هذه العبارة ، ومن حال السائلة ما جاءت لتسأل عنه وأدرك أن بيتها ليس فيه شيء من طعام أو غذاء مما جعل الفئران تهجره ولا تُطيق الإقامة به وقال لعُمَّاله : املأوا بيتها خبزاً وسمناً ولحماً .

ونحن نستعمل كثيراً من أمثال هذه الأساليب في حياتنا اليومية بيننا وبين زملائنا وأصدقائنا ، كما يستعملها المربّون والمعلّمون والرؤساء والآباء مع طلابهم وموظفيهم وأبنائهم عندما يحاولون نصحهم إلى أمر ينبغي أن يعملوه ، أو يعاتبونهم ويلومونهم على شيء أهملوا تنفيذه والقيام به فيستخدمون معهم هذا اللون من الأساليب الذي يحقق لهم غرضهم ويمكنهم من أداء واجب النصح والإرشاد على وجه يصون للمتكلم حياءه وأدبه ولا يحدث للسامع إهانة ظاهرة أو إساءة واضحة .

وتعرف تلك الأساليب بالتعريض .

أي الوصول الى الهدف المنشود وتحقيق الغرض المطلوب بالرمز والإشارة .

ومن الأمثلة أيضاً على التعريض ما يروى من أن عثمان بن عفان رضي الله عنه دخل المسجد وعمر بن الخطاب رضي الله عنه يخطب الجمعة فأراد عمر معاتبته على تأخره في الحضور إلى المسجد فقال له : أيُّ ساعةٍ هذه ؟ فقال عثمان : رجعت من السوق فسمعت النداء فما زدت على أن توضّأت ، فقال له عمر : والوضوء أيضاً ؟

ففي العبارة تعريضان : أولهما : أيُّ ساعةٍ هذه ؟ فإنها تفيد في ظاهر الأمر أنها سؤال عن الساعة التي حضر فيها عثمان ، وليس الأمر كذلك بل إنها تفيد التعريض بمجيء عثمان إلى المسجد في هذا الوقت المتأخر بعد أن صعد الخليفة على المنبر ، ولذلك فهم عثمان أن عمر يريد بذلك معاتبته على تأخره فقال له : رجعت من السوق فسمعت النداء فما زدت على أن توضأت .

وثانيهما : قوله : والوضوء أيضاً ؟ ـ فإنها عتاب آخر لعثمان على عدم اغتساله جرياً على سنة الرسول ﷺ، وكأنه يريد أن يقول له في هذا الأسلوب التعريضي إنك لم تقصر في مجيئك إلى المسجد يوم الجمعة متأخراً فقط بل

قصَّرت أيضاً في الإكتفاء بالوضوء وعدم الاغتسال .

ومن خواص التعريض وأسرار بلاغته أنه يعين صاحبه والمتكلم به على إخفاء ما يريد من عتاب أو نقد أو توجيه أو شكاية على الحاضرين حتى لا يفهم مراده إلا من يقصده بالحديث وبذلك يجعل نفسه بمأمن من المؤاخذة كقولك في التعريض بشخص كذاب : لست كذاباً ـ فإنك لم تتهمه مباشرة بالكذب ـ بل اكتفيت بنفي الكذب عن نفسك ، فيفهم الكذاب أن المقصود لومه والتعريض به ، ولا يتأتى له أن يحاسبك على قولك لأنك لم توجه إليه شيئاً صريحاً ، ولو حاول أن يؤاخذك على ما تقول فإنك تبرىء نفسك منه بأنك لا تعنيه بحديثك ولم تنسب إليه شيئاً من كلامك .

ومثل ذلك قولك : أنا لا اعتقد حِلَّ الخمر في التعريض بإنسان معين يشرب الخمر ومن ذلك أيضاً قولك في التعريض بإنسان يؤذي المسلمين بلسانه ويده : المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ـ فإن لهذا القول النبوي الكريم في هذا المقام معنيين : أحدهما عام ظاهر لكل الناس وهو نفي الإسلام الحقيقي عن أي شخص مسلم يؤذي المسلمين بلسانه أو بيده أو بهما معاً ـ وثانيهما : خاص خفي لا يدركه إلا المقصود به وهو التعريض بشخص معين يؤذي المسلمين بيده ولسانه ـ ولو حاول هذا الشخص أن يؤاخذك على ذلك لما تمكن حيث تقول له : إني لم أوجه إليك إساءة محددة ـ وإنما ذكرت ذلك على وجه العموم .

ومن أمثلة التعريض في القرآن الكريم قوله تعالى : « قل من يرزقكم من السموات والأرض قل الله وإنا أو إياكم لعلى هُدىً أو في ضلال مبين [1] » .

فالله تعالى أعلم بالذي على الهدى والذي في الضلال ، لكنه ساق الكلام على هذا الوجه المبهم للتعريض بعدم هدي الكفار ، ولإجبارهم على التأمل فيما هم عليه من الكفر والضلال والفسوق والعصيان وما عليه المؤمنون من طاعة

---

(١) سورة سبأ : ٢٤ .

وإيمان وحب واتحاد حتى إذا أمعنوا النظر علموا أنهم على ضلالة ، فيبعثهم ، ذلك على اعتناق الإسلام والإهتداء بنوره .

ومن الأسرار البلاغية الدقيقة في الآية الكريمة المخالفة بين حرفي الجر فقد استعمل « على » مع « الهدى » لأن في الهدى شرفاً وعلواً فيناسبه حرف الجر « على » الذي يفيد الاستعلاء - واستعمل « في » مع الضلال لأن في الضلال عقاباً وانحطاطاً ونزولاً فيناسبه «في» التي تفيد الظرفية وذلك من دقائق الإعجاز القرآني حيث لا يستقيم المعنى عند حذف كلمة منه ويختل نظمه عند إبدال كلمة بأخرى ، مما كتب له الخلود ، وصدق الله إذ يقول : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون »[1] .

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى : « إنما يتذكر أولو الألباب »[2] .

أي إن الذي يعقل الحق ويؤمن به هم أصحاب العقول السليمة ، وهذا هو المعنى الواضح للآية الذي ليس مقصوداً ، أما المعنى الثاني المقصود والذي يحتاج لتأمل وطول تدبر فهو التعريض بالكفار الذين دعاهم الرسول إلى الايمان بالله فأعرضوا عنه بموته وأنهم في ذلك كالبهائم التي حرمها الله من نعمة العقل فلا تميز الخير من الشر ولا النافع من الضار ، ولوكان لهؤلاء الكفار عقول يفقهون بها لاتبعوه من أول لحظة ، وفي الآية الكريمة أيضاً تسلية لرسول الله ﷺ من الله على ما يناله من همٍّ لعدم إيمان كل الناس به ، وأنه لا ينبغي له أن يحزن بعد أن بلغ رسالة ربِّها التي يتبعها من أول لحظة أصحاب العقول المفكرة ، ويَصُدّ عنها من لا يميزون الخير من الشر.

ومن التعريض في القرآن أيضاً قوله تعالى : « قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم . قال بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون »[3] . فقول

(١) سورة الحجر : ٩ .
(٢) سورة الرعد : ١٩ .
(٣) سورة الأنبياء: ٦٢، ٦٣.

إبراهيم عليه السلام في الرد عليهم : « بل فعله كبيرهم هذا » تعريض بجهلهم وضعف عقولهم وكأنه يريد أن يقول لهم : كيف تعبدون ما لا يجيب إن سُئِل ، وتجعلونه شريكاً لمن له الخلق والأمر ؟

وهكذا نرى أن فن التعريض من فنون البلاغة الذي يستخدمه كثير من الناس ، ويحتاج اليه بصفة خاصة أهل الدعوة والتوجيه حيث يتمكنون باستخدامه من توجيه نصائحهم وبث توجيهاتهم لكل من يرون أنه يحتاج لنصح أو توجيه ، كما يعد التعريض وسيلة من وسائل تغيير المنكر والتعبير عن عدم الرضا به ، وسيلة تناسب أهل الكلام ، وحملة الأقلام .

# الطباق

**تعريفه :**

**الطباق** : هو الجمع بين الشيء وضده في جزء من أجزاء الرسالة أو الخطبة أو القصيدة ـ كالليل والنهار ـ والعلم والجهل ـ والحركة والسكون ـ والغنى والفقر ـ والكلام والسكوت . وغير ذلك .

سر بلاغته :

الطباق من فنون البلاغة التي تجعل الأساليب حسنة ، والعبارات جميلة وهو يجذب السامعين لتأمل المعاني ، وتدبرها ، فتستقر في نفوسهم وتتقرر في عقولهم ـ لما فطرت عليه النفس الإنسانية من ترقب الفن وانتظاره ـ فإذا ما جاء الفن تلقفته الأذن الصاغية بالتدبر والتأمل فقلبت المعاني في الذهن وتستقر في الخاطر .

## نماذج من الطباق في القرآن الكريم .

قال تعالى : « قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتُعِزُّ من تشاء وتُذِلُّ من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير . تُولجُ اللَّيلَ في النهار وتولج النهار في الليل وتخرج الميت من الحي وترزق من تشاء بغير حساب [1] » . فقد صورت الآيتان القدرة الإلهية بأوضح معانيها ، وكان للطباق بين : «تؤتي وتنزع وتُعِزُّ وتُذِلُّ أثر واضح في تجلية هذه الصورة ، والكلمات المتضادة أفعال مضارعة .

---

(١) سورة آل عمران : آية ٢٦ ، ٢٧ .

وقال تعالى : « كتاب أنزلناه اليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد »[1] .

فالطباق في الآية الكريمة بين : الظلمات والنور ـ وهما اسمان ـ ولا يراد من الظلمات : الليل كما لا يراد من النور النهار ـ لأن الليل والنهار موجودان منذ خلق الله الدنيا، ويبقيان إلى أن تقوم الساعة ـ وذلك يعني أن الناس قبل الإسلام كانوا يعيشون في ليل ونهار ، كما أنهم عاشوا بعد الإسلام في ليل ونهار ـ وإنه لدليل على أن المراد من الظلمات الجهل والضلال وأن المراد من النور العلم والهداية ـ فقد جعل الله القرآن هداية الناس إلى طريق الحق، وسعادتهم في الدنيا والآخرة ـ وقد صور الله الضلال بالظلمات والهدى بالنور ليدرك الناس جميعاً فضل القرآن وقيمته وأن فيه علاج مشكلاتهم فكل الناس يدركون بأبصارهم الظلمة والنور .

وقال تعالى : « لا يكلف الله نفساً إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت . . »[2] .

فالطباق في الآية بين : لها وعليها ـ وهما حرفان ـ ووجه التضاد بينهما : أن لها في الثواب على ما قدمه الإنسان من أعمال صالحة ـ وعليها في العقاب على ما ارتكبه الإنسان من ذنوب ـ ولما كان فعل المعصية يحتاج إلى تعب ويكلف صاحبه أعباء جسمية ومادية استعمل معه الفعل : اكتسب الذي زاد عن الفعل : « كسب » حرفين وهما : الهمزة والتاء ـ لتكون تلك الزيادة في عدد الحروف دليلاً على الزيادة في المعنى ـ وذلك من أسرار اللغة العربية وبلاغتها ، ومن روائع التعبير القرآني .

## نماذج من الطباق في كلام الرسول صلى الله عليه وسلم

قال النبي ﷺ للأنصار : « إنكم لتكثرون عند الفزع وتقلون عند الطمع »

(١) سورة إبراهيم : آية : ٢ .

(٢) سورة البقرة : الآية : ٢٨٦ .

الأنصار : هم أهل المدينة من الأوس والخزرج الذين رحبوا بالرسول ﷺ والمهاجرين من أهل مكة ووقفوا معهم ضد الكفار واليهود والمنافقين - والفزع : معناه : القتال والطمع : الغنائم - والطباق كما ترى بين : تكثرون وتقلون .

ونرى أن هذا القول النبوي الكريم من الروعة والبلاغة بحيث يكاد يحفظه من يسمعه لأول مرة - وسر بلاغة هذا القول تتمثل في :

١ - أنه من كلام النبوة - وكلام النبي ﷺ يلي كلام القرآن في الروعة والبلاغة - فقد أوتي جوامع الكلام - وقال عنه الله في القرآن : « وما ينطق عن الهوى . إن هو إلاّ وحي يوحى »[١] .

٢ - اشتمل على الطباق بين : « تكثرون وتقلون » والطباق كما علمت يؤكد المعاني ويثبتها في النفوس .

٣ - إنه تكون من جملتين يرتبطان ببعضهما تمام الإرتباط ، فإن من يلبي داعي الجهاد مسرعاً بلا تأخير يقل إقباله على الدنيا بل ينعدم تعلقه بها أو تفكيره فيها ، كما هو حال الأنصار - فقد أنساهم إقبالهم على الجهاد بصدق وإخلاص أمر الغنائم والإهتمام بها .

٤ - كما نُحس أن للقول النبوي نغماً لذيذاً ، ووقعاً حسناً ، مما جعله خفيفاً على السمع مقبولاً للنفس - وذلك لأن كل الجملة الأولى فيه قد ختمت بالحرف الذي ختمت به الجملة الثانية ويعرف ذلك بالسجع .

وقال ﷺ : « خير المال عين ساهرة لعين نائمة » .

أي ما فعله الإنسان قبل موته من صدقة جارية ينتفع المسلمون بها فإنها أفضل المال - لأن ثوابها يعود إليه بعد رحيله إلى الدار الآخرة .

وسر بلاغة هذا القول النبوي الكريم في :

---

(١) سورة النجم : ٣ ، ٤ .

١ ـ الطباق بين : ساهرة ونائمة .

٢ ـ التصويرّ البياني الرائع للثواب العظيم الذي يعود على الميت من ماله الـذي جعله في سبيل الله بالإنسان الذي كتب على عينيه أن تظلا ساهرتين فلا يعرف النوم سبيلاً اليهما .

٣ ـ خفة القول على السمع ، لما زانه من نغم جميل ـ حيث ختمت العبارة الأولى بالحرف الذي ختمت به العبارة الثانية ـ أي بسبب السجع .

**ما يلحق بالطباق :**

قال تعالى : « ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون »[1] .

في الآية الكريمة طباق بين الليل والنهار وذلك ظاهر لا يحتاج لتنبيه .

وقد يبدو لمن لم ينظر في الآية بتأمل وتدبر أن فيها طباقاً آخر بين : لتسكنوا الذي يختص بالليل ، ولتبتغوا المتعلق بالنهار ، لكن بالتدبر والتأمل أن الذي بين : لتسكنوا ولتبتغوا ليس تضاداً واضحاً وإنما هو شبه تضـاد ـ فإن ابتغـاء الفضل لا يضاد السكون ـ والذي يضاد السكون هو الحـركة ـ والعلاقـة بين الحركة وابتغاء الفضل هو احتياج الإبتغاء إلى الحـركة فبينهمـا تلازم ، لكن لماذا لم يستعمل القرآن : لتتحركوا واستعمل بدلاً منها لتبتغوا من فضله ؟

لم يستعمل القرآن : لتتحركوا واستعمل بدلاً منها : لتبتغوا من فضله ـ لأن الحركة قد تكون في الخير كما تكون في الشر ، لكن ابتغاء الفضل لا يكون إلا للخير فلذلك آثره القرآن بالتعبير .

ولما لم يكن الطباق ظاهراً بين اللفظين كما ترى ، ولا يوقف عليه إلا بتأمل وتدبر سمي ذلك : ملحقاً بالطباق .

---

(١) سورة القصص : ٧٣ .

ومما ألحق بالطباق أيضاً قوله تعالى في وصف الرسول ﷺ وأصحابه : « محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم رُكَّعاً سُجَّداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً سيماهم في وجوههم من أثر السجود »[1] .

فيبدو للناظر أول الأمر أن في الآية تضاداً بين : أشداء ورحماء ، وبالتدبر يتبين أن التضاد ليس مباشراً ولا واضحاً ـ فإن الرحمة لا تضاد الشدة ، والذي يضاد الشدة هو اللين والعلاقة بين الرحمة واللين أن الرحمة تنشأ عن اللين وتترتب عليه ـ وقد عبر القرآن بالرحمة لأنه في مقام الوصف لأصحاب رسول الله ﷺ الذين بلغوا درجة العظمة حيث جمعوا بين الشيء وضده في وقت واحد ، والرحمة من أعظم الصفات وهي مأخوذة من اسمه تعالى : « الرحمن الرحيم » .

لكن : لماذا لم يقتصر القرآن على وصف أصحاب الرسول ﷺ بأنهم أشداء على الكفار وأتبع ذلك بوصفهم بالرحمة فيما بينهم ؟

والجواب عن ذلك : أن الشدة المطلقة في كل الأحوال عيب لأنها تدل على قسوة وغلظة ـ فلو اقتصر القرآن على وصفهم بالشدة لتوهم أنهم قُساةٌ غلاظ ، لذلك وصفهم بعد ذلك بالرحمة دفعاً لهذا الوهم ـ ليفيد أنهم جمعوا بين الضدين ، وحازوا طرفي العظمة ـ فهم إذا التقوا بالأعداء أذاقوهم الويل والتنكيل ـ فهم لذلك أشداء ـ وفي الوقت نفسه فهم للرسول محبون مطيعون ولإخوانهم محبون متوادون ـ وذلك يعرف في البلاغة بالاحتراس ، ومثل ذلك قول الله عز وجل : « يأيها الذين آمنوا من يرتدَّ منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزةٍ على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم »[2] .

---

(١) سورة الفتح : ٢٩ .

(٢) سورة المائدة : ٥٤ .

فقد وصف الله عباده المؤمنين بأنهم أذلة على المؤمنين أي متواضعون لهم ، فلو اقتصر على ذلك لأوهم أنهم يفعلون ذلك لضعفهم - فأتى بعد ذلك بما يدفع هذا التوهم ما يؤكد أنهم أقوياء وأن تواضعهم عن مقدرة لا عن ضعف وهو قوله : أعزةٍ على الكافرين .

# موجز البحث

اشتمل البحث على تمهيد وثلاثة فصول .

أظهر التمهيد أهمية البحث والأسئلة التي يجيب عليها .

وتحدث الفصل الأول عن : البلاغة والإعجاز فذكر أن إعجاز القرآن البلاغي أكبر من فنون البلاغة المعروفة وأنه يتمثل في الإيقاع الصوتي والإنسجام القرآني الناشىء عن دقة التأليف وروعة النظم - كما بين هذا الفصل أن دراسة البلاغة عموماً وبلاغة القرآن خصوصاً لا تؤهل الدارس لأكثر من الوقوف على بعض سمات النظم الكريم ، وأن هذا النظم المحكم هو الذي حفظ القرآن من عبث العابثين وضمن للغته القوة والبقاء .

وأبرز الجانب الأول من الفصل الثاني مسألة الألفاظ بين القرآن وكلام العرب مشيراً إلى موقف بعض المحدثين منها ، وانتهى إلى أن القرآن نسيج وحده وأن تأليفه من ألفاظ العرب جعله أدخل في الإعجاز وأوضح في قطع الأعذار .

أما الجانب الثاني من هذا الفصل فقد اهتم بمناقشة الفنون البلاغية بين القرآنِ وكلام العرب مستهدياً بما ذكره الباحثون قديماً وحديثاً ، واستخلص عدداً من الفروق من بينها : أن فنون البلاغة في القرآن لا يحيط بها إلا الله وحده ، وأنه لا يمكن الإتيان بمثلها لأنها معجزة في أماكنها وأنها تتمثل في جميع السور والآيات ، وأن المقاييس التي اهتدى اليها البلاغيون لا يتأتى لها

تمام التطبيق على أسلوب القرآن الكريم لتفرده وسموه ، كما قدّم أمثلة لذلك من علوم البلاغة الثلاثة ، وانتهى هذا الجانب بتقرير أن فنون البلاغة في القرآن من مقتضيات نظمه ولا يمكن التصرف فيها بأي وجهٍ كما لا يمكن التصرف في حروف القرآن وألفاظه وتراكيبه .

وعرض الفصل الثالث والأخير لمسألة : إعجاز القرآن البلاغي لغير العرب فبين أن القرآن معجز لغير العرب ببلاغته كإعجازه للعرب ، بدليل ما يبدو على من يستمع له من آثار روحية ، وبدليل هذه الأعداد التي تدخل الإسلام كل يومٍ بمجرد استماعها لآيات الكتاب العظيم ـ وأكد الباحث ذلك بتقديم تجربة له مع دروس البلاغة واللغة من خلال آيات القرآن الكريم للطلاب الوافدين من العالم الإسلامي للدراسة بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية .

# نتائج البحث

ونستطيع أن نخرج من هذا البحث بعدد من النتائج :

١ ـ القرآن معجزة الإسلام الكبرى .

٢ ـ إعجاز القرآن في لغته وبلاغته .

٣ ـ بلاغة القرآن تؤثر في غير العربي تأثيرها في العربي .

٤ ـ بلاغة القرآن أكبر من أن تحيط بها علوم البلاغة أو تعبِّر عنها الفنون البلاغية .

٥ ـ فنون البلاغة في القرآن معجزة في مواضعها كإعجاز حروفه وكلماته وتراكيبه في أماكنها .

٦ ـ الإعتناء في دروس البلاغة للعرب وغير العرب بما يُجلّي البلاغة القرآنية ويُبرز إعجازها .

٧ ـ البلاغة القرآنية أفضل ما يوثق علاقة الطلاب وخصوصاً الوافدين منهم بالقرآن ويزيدهم تعلقاً به .

٨ ـ جعل القرآن المصدر الأساسي للدراسة اللغوية ما أمكن ذلك.

والله الموفق والهادي سواء السبيل .

**الرياض في ليلة الأحد الثامن من ربيع الأول ١٤٠٠ هـ .**

# المراجع


| اسم المؤلف | عنوان المرجع | بيانات |
|---|---|---|
| ١ ابن سنان الخفاجي | سر الفصاحة | تحقيق : عبد المتعال الصعيدي |
| ٢ أبو هلال العسكري | الصناعتين | ط أولى ١٣٢٠هـ |
| ٣ أحمد أحمد بدوي- د - | من بلاغة القرآن | ط ثالثة |
| ٤ الرماني | النكت في إعجاز القرآن | ضمن ثلاث رسائل ـ دار المعارف |
| ٥ الزركشي | البرهان في علوم القرآن | ط أولى تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم |
| ٦ الزمخشري | الكشاف | ط بيروت |
| ٧ السيوطي | معترك الأقران في إعجاز القرآن | تحقيق : علي البجاوي |
| ٨ السيوطي | الإتقان في علوم القرآن | تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم |
| ٩ الباقلاني | إعجاز القرآن | تحقيق د . محمد عبد المنعم خفاجي |
| ١٠ الخطابي | بيان إعجاز القرآن | ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن |

| اسم المؤلف | عنوان المرجع | بيانات |
|---|---|---|
| ١١القاضي عبد الجبار | المغني ج١٦ | تحقيق : أمين الخولي |
| ١٢القاضي عياض | الشفاء | ط أخيرة الحلبي سنة ١٩٥٠م |
| ١٣حازم القرطاجني | منهاج البلغاء وسراج الأدباء | تحقيق : محمد الحبيب بن الخوجه |
| ١٤زكي مبارك ـ د ـ | جريدة البلاغ | عدد ٢١ أغسطس ١٩٣١م |
| ١٥سعد الدين التفتازاني | المطول على التلخيص | ط أحمد كامل |
| ١٦ ضياء الدين بن الأثير | المثل السائر | تحقيق الدكتورين : الحوفي وطبانه |
| ١٧عبد القاهر الجرجاني | أسرار البلاغة | تحقيق السيد محمد رشيد رضا ط٦ |
| ١٨عبد القاهر الجرجاني | دلائل الإعجاز | تحقيق المراغي ط٢ |
| ١٩عبد القاهر الجرجاني | الرسالة الشافية | ضمن ثلاث رسائل ط دار المعارف |
| ٢٠عبد المتعال الصعيدي | بغية الإيضاح | |
| ٢١عبد المتعال الصعيدي | جريدة البلاغ | عدد ٢٨ أغسطس ١٩٣١م |
| ٢٢فحي فريد ـ د ـ | البديع | دار الطباعة المحمدية ط أولى |
| ٢٣فتحي فريد ـ د ـ | المدخل إلى دراسة البلاغة | مكتبة نهضة مصر |
| ٢٤فتحي فريد ـ د ـ | رأي في تطوير البلاغة | العدد التاسع من مجلة كلية اللغة العربية بالرياض |

| اسم المؤلف | عنوان المرجع | بيانات |
| --- | --- | --- |
| ٢٥ محمد عبد الخالق عضيمة | اساليب القرآن | مجلة اللغة العربية بالرياض عدد ٩ |
| ٢٦ محمد عبدالله دراز ـ د ـ | النبأ العظيم | مطبعة السعادة القاهرة سنة ١٩٦٠ م |
| ٢٧ محمد فريد وجدي | جريدة البلاغ | عدد ٢٠ اكتوبر سنة ١٩٣١ م |
| ٢٨ محمد فريد وجدي | دائرة معارف القرن العشرين | ط ثانية |
| ٢٩ محمود تيمور | مشكلات اللغة العربية | بدون بيانات |
| ٣٠ مصطفى صادق الرافعي | إعجاز القرآن والبلاغة النبوية | ط ثامنة |
| ٣١ مصطفى صادق الرافعي | وحي القلم | ط التجارية |
| ٣٢ يحيى العلوي | الطراز | ط المقتطف |

## المحتوى